الباب الثالث

الإسلام وتيارات الفكر الغربى

ويتضمن هذا الباب الفصول الآتية :

الفصل الأول : الإسلام والاستشراق.

الفصل الثانى : دور مؤسسات الدعوة حيال الغزو الفكري.

الفصل الثالث : مستقبل الإسلام في الغرب .

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

الإســـلام والاستشـراق

ويتضمن هذا الفصل :

١ ـ تمهيـــد.

٢- تاريخ الاستشراق وتطوره.

٣- مواقف المستشرقـين:

(أ) الجوانب الإيجابية .

(ب) الجوانب السلبية.

٤- موقفنا من الاستشراق.

obeikandl.com

الإسلام والاستشراق [1]

١- تمهيد :

إن مما لا جدال فيه أن الاستشراق له أثر كبير فى العالم الغربى وفى العالم الإسلامى على السواء وإن اختلفت ردود الأفعال على كلا الجانبين. ولا يكاد المرء فى عالمنا العربى المعاصر يجد مجلة أو صحيفة أو كتاباً إلا وفيها ذكر أو إشارة إلى شىء عن الاستشراق أو يمت إليه بصلة قريبة أو بعيدة. وهذا أمر ليس بمستغرب وذلك لأن الاستشراق فى حقيقة الأمر كان وما يزال جزءاً لا يتجزأ من قضية الصراع الحضارى بين العالم الإسلامى والعالم الغربى، بل يمكن أن نذهب إلى أبعد من ذلك ونقول إن الاستشراق يمثل الخلفية الفكرية لهذا الصراع، ولهذا فلا يجوز التقليل من شأنه بالنظر إليه على أنه قضية منفصلة عن باقى دوائر هذا الصراع الحضارى. فقد كان للاستشراق ـ من غير شك ـ أكبر الأثر فى صياغة التصورات الأوربية عن الإسلام وفى تشكيل مواقف الغرب إزاء الإسلام على مدى قرون عديدة.

والاستشراق قضية تتناقض حولها الآراء فى عالمنا العربى الإسلامى، فهناك من يؤيده ويتحمس له إلى أقصى حد وهناك من يرفضه جملة وتفصيلاً ويلعن كل مشتغل به بوصفه عدواً لدوداً للإسلام والمسلمين.

والواقع الذى لا يمكن إنكاره هو أن الاستشراق له تأثيراته القوية فى الفكر الإسلامى الحديث إيجاباً أو سلباً أردنا أم لم نرد. ولهذا فإننا لا نستطيع أن نتجاهله أو نكتفى بمجرد رفضه وكأننا بذلك قد قمنا بحل المشكلة، إننا لو فعلنا ذلك لكنا كالنعامة التى تدفن رأسها فى الرمال.

---

(١) محاضرة ألقيت ضمن محاضرات الموسم الثقافى للمحاكم الشرعية والشئون الدينية بدولة قطر فى ٤/٣/١٤٠٣ هـ الموافق ١٩/١٢/١٩٨٢م.

ولهذا فإنه ليس هناك بديل عن مواجهة المشكلة وطرحها على بساط البحث ودراستها واستخلاص النتائج وطرح الحلول واقتراح البدائل.

ومن أجل ذلك أردت أن أحدثكم اليوم عن الاستشراق وأبعاده فى موضوعية هادئة أو فى هدوء موضوعى. ولن نستطيع بطبيعة الحال فى محاضرة كهذه أن نوفى هذا الموضوع حقه من البحث ونستوفى الحديث عن كل جوانبه، ولكن حسبنا أن نلقى بعض الضوء على بعض النقاط المهمة، لعل ذلك يكون حافزاً لنا على التفكير والتأمل فى هذا الموضوع، ونبدأ أولاً بإلقاء نظرة تاريخية على الحركة الاستشراقية وتطورها. وقد تبدو مثل هذه النظرة التاريخية لأول وهلة شيئاً معاداً ومكرراً، ولكن لا بد لنا ـ على الرغم من ذلك ـ من الإمساك بشتى الخيوط التى تساعدنا على الإلمام بجوانب الموضوع، فضلاً عن أننا من خلال هذه النظرة سنتعرف عن قرب على تطور الدراسات الإسلامية لدى المستشرقين.

٢- تاريخ الاستشراق وتطوره:

ترجع البدايات الأولى للاستشراق لدى بعض الباحثين إلى مطلع القرن الحادى عشر. ويرى المستشرق الألمانى المعاصر رودى بارت أن بداية الدراسات العربية والإسلامية فى أوروبا تعود إلى القرن الثانى عشر. وقد جعل نجيب العقيقى كتابه عن المستشرقين فى أجزائه الثلاثة سجلاً للاستشراق على مدى ألف عام.

وعلى أية حال فإن الدافع لهذه البدايات المبكرة للاستشراق كان يتمثل فى ذلك الصراع الذى دار بين العالمين الإسلامى والمسيحى فى الأندلس وصقلية، كما دفعت الحروب الصليبية بصفة خاصة إلى اشتغال الأوروبيين بتعاليم الإسلام وعاداته. وقد نشط اللاهوتيون المسيحيون فى ذلك الوقت ضد الإسلام وزعموا ـ فيما زعموا ـ أن الإسلام قوة خبيثة شريرة وأن محمداً ليس إلا صنماً أو إله قبيلة

أو شيطاناً، وغذت الأساطير الشعبية والخرافات خيال الكتاب اللاتينيين. ولم يكن الهدف بطبيعة الحال هو عرض صورة موضوعية عن الإسلام، فقد كان هذا أبعد ما يكون عن أذهان المؤلفين فى ذلك الزمان. وقد اعترف أحد ممثليهم وهو «جيبير دو نوجينت » Guibert de Nogent بأنه لا يعتمد فى كتاباته عن الإسلام على أية مصادر مكتوبة، وأشار فقط إلى آراء العامة وأنه لا يوجد لديه أية وسيلة للتمييز بين الخطأ والصواب، ثم قال مبرراً كتاباته غير العلمية : « لا جناح على المرء إذا ذكر بالسوء من يفوق خبثه كل سوء يمكن أن يتصوره المرء » وقد أطلق «ساذرن»Southern على هذه الفترة فى كتابه « نظرة الغرب إلى الإسلام فى القرون الوسطى» عنوان : عصر الجهالة.

وفى مقابل تلك الصورة البغيضة للإسلام كانت هناك جهود أخرى للوصول إلى قدر من الموضوعية فى مجال العلوم العربية مثل الفلسفة والطب والعلوم الطبيعية. يقول « مكسيم رودنسون » عن تلك الفترة : « ولا يصادف المرء موقفاً موضوعياً إلا فى مجال مختلف تماماً لا يمت إلى الدين الإسلامى إلا بصلة بعيدة وأعنى العلم بأوسع معانيه ».

وقد أخطأ « رودنسون » هنا فى جعله العلم لا يمت إلى الإسلام إلا بصلة بعيدة. فقد كان الإسلام فى واقع الأمر وراء كل إنجاز علمى حققه المسلمون فى مختلف المجالات.

وبدءاً من عام ١١٣٠م كان العلماء المسيحيون فى أوروبا يعملون جاهدين على ترجمة الكتب العربية فى الفلسفة والعلوم، وكان لرئيس أساقفة طليطلة الفضل فى إخراج ترجمات مبكرة لبعض الكتب العلمية العربية بعد الاقتناع بأن العرب يملكون مفاتيح قدر عظيم من تراث العالم الكلاسيكى. وكانت هناك فى القرن الثانى عشر أيضاً بعض المحاولات للتعرف على الإسلام بقدر من الموضوعية ولكن مع الهدف الواضح والمعلن وهو محاربة هذه التعاليم الإسلامية الإلحادية. ومن أجل ذلك قام بطرس الموقر « ت ١١٥٦م » رئيس رهبان كلونى بتشكيل جماعة

من المترجمين فى إسبانيا يعملون كفريق واحد من أجل الحصول على معرفة علمية موضوعية عن الدين الإسلامى. وفى تلك الفترة ظهرت أول ترجمة للقرآن عام ١١٤٣م قام بها الإنجليزى « روبرت أوف كيتون » Robert of Ketton.

وهكذا نجد أنه قد كان هناك فى هذه الفترة المبكرة للاستشراق اتجاهان مختلفان فيما يتعلق بالأهداف والمواقف إزاء الإسلام. أما الاتجاه الأول فقد كان اتجاهاً لاهوتياً متطرفاً فى جدله العقيم. ناظراً إلى الإسلام من خلال ضباب كثيف من الخرافات والأساطير الشعبية. أما الاتجاه الثانى فقد كان نسبياً بالمقارنة إلى الاتجاه الأول أقرب إلى الموضوعية والعلمية، ونظر إلى الإسلام بوصفه مهد العلوم الطبيعية والطب والفلسفة. ولكن الاتجاه الخرافى ظل حياً حتى القرن السابع عشر وما بعده، وما يزال هذا الاتجاه ـ للأسف ـ حياً فى العصر الحاضر فى كتابات بعض المستشرقين عن الإسلام ونبيه.

وأحد المسيحيين المستنيرين القلائل الذين كانوا يتبنون إزاء الإسلام موقفاً أقرب إلى الاعتدال كان فريدريك الثانى حاكم صقلية الذى أصبح امبراطوراً حوالى عام ١٢٢٠ م وكان يعرف العربية ويتشبه بالعرب فى لباسهم وعاداتهم ويتحمس للفلسفة والعلوم العربية. وقد كان نصيب هذا الامبراطور أن طرده البابا «جريجورى التاسع» Gregory IX من الكنيسة عام ١٢٣٩م. وقد كانت إحدى التهم التى وجهت إليه هى ما يبديه من مظاهر الود تجاه الإسلام.

والأمر المهم بالنسبة لتطور الاستشراق كان الاقتناع بضرورة تعلم لغات المسلمين إذا أريد لمحاولات تنصير المسلمين أن تؤتى ثمارها بنجاح. ومن بين من تبنى هذا الرأى الذى فرض نفسه بالتدريج ـ « روجر بيكون »Roger Bacon «ورايموند لل »Raimund Lull وقد صادق مجمع فيينا الكنسى عام ١٣١٢م على أفكار بيكون ولل بشأن تعلم اللغات الإسلامية واللغة العربية على وجه الخصوص. وقد تم تنفيذ ذلك فى جامعات باريس وبولونيا وأكسفورد وسلمنكا.

وقد ساعد على تقدم الدراسات الاستشراقية فى نهاية العصر الوسيط تلك

الصلات السياسية والدبلوماسية مع الدولة العثمانية التى اتسعت رقعتها حينذاك. وقد كان للروابط الاقتصادية لكل من إسبانيا وإيطاليا مع كل من تركيا وسوريا ومصر أثر كبير فى دفع حركة الدراسات الاستشراقية.

وفى القرن السادس عشر وما بعده أدت النزعة الإنسانية فى عصر النهضة الأوربية إلى دراسات أكثر موضوعية من ذى قبل، ومن ناحية أخرى ساندت البابوية الرومانية دراسة لغات الشرق من أجل مصلحة التبشير. وفى عام ١٥٣٩م تم إنشاء أول كرسى للغة العربية فى « الكوليج دى فرانس » فى باريس. وشغل هذا الكرسى « جيوم بوستل » Guillaume Postel (ت ١٥٨١م) الذى يعد أول المستشرقين الحقيقيين. وقد أسهم كثيرًا فى إثراء دراسة اللغات والشعوب الشرقية فى أوربا، وجمع فى الوقت نفسه ـ وهو فى الشرق ـ مجموعة مهمة من المخطوطات، وقد سار على نهجه تلميذه « جوزيف اسكاليجر » Joseph Scaliger (ت ١٦٠٩م) وفى عام ١٥٨٦م استفادت اللغة العربية فى أوربا من المطابع ـ التى أسسها الكاردينال دوق تسكانيا ـ الكثير.

وفى القرن السابع عشر بدأ المستشرقون فى جمع المخطوطات الإسلامية، وأنشئت كراسى للغة العربية فى أماكن مختلفة ، ومما هو جدير بالذكر أن قرار إنشاء كرسى اللغة العربية فى جامعة كمبردج عام ١٦٣٦م قد نص صراحة على خدمة هدفين أحدهما تجارى والآخر تبشيرى. فقد جاء فى خطاب للمراجع الأكاديمية المسئولة فى جامعة كمبردج بتاريخ ٩ مايو ١٦٣٦م إلى مؤسسى هذا الكرسى ما يأتى : « ونحن ندرك أننا لا نهدف من هذا العمل إلا الاقتراب من الأدب الجيد بتعريض جانب كبير من المعرفة للنور بدلاً من احتباسه فى نطاق هذه اللغة التى نسعى لتعليمها، ولكنا نهدف أيضاً إلى تقديم خدمة نافعة إلى الملك والدولة عن طريق تجارتنا مع الأقطار الشرقية، وإلى تمجيد الله بتوسيع حدود الكنيسة والدعوة إلى الديانة المسيحية بين هؤلاء الذين يعيشون الآن فى الظلمات».

وفى القرن السابع عشر أيضاً ظهرت مؤلفات عامة عن الإسلام والحضارة

الإسلامية والأدب الإسلامى. وبدلاً من الآراء التى تبناها اللاهوتيون حتى ذلك الوقت عن محمد بوصفه بأنه شيطان، وعن القرآن بوصفه بأنه مزيج من اللغو الباطل ظهرت آراء أخرى أقل عنفاً، وذلك على سبيل المثال لدى «بيير بايل» Pierre Bayle فى قاموسه التاريخى والنقدى « روتردام ١٦٩٧م »، أو لدى «سيمون أوكلى» ١٦٧٨ ـ ١٧٢٠م فى كتابه «تاريخ السراسنة » أى : العرب المسلمين. فالسرد التاريخى فى هذا الكتاب يعد نسبياً غير متحيز، ولكن وصف المؤلف للنبى ﷺ بأنه « رجل خبيث جداً وماكر، وأن ما كان يبديه من شمائل طيبة مجرد أمر ظاهرى يخفى حقيقة نفسه التى كان يحكمها الطموح والطمع » هذا الوصف أسقط المؤلف مرة ثانية فى بؤرة المواقف اللاهوتية السابقة.

وقد كانت أول محاولة علمية جادة للتعرف على الإسلام على يد « هادريان ريلاند » Hadrian Reland أستاذ اللغات الشرقية فى جامعة أوترشت بهولندا. فقد صدر له كتاب باللغة اللاتينية عن الإسلام عام ١٧٠٥م بعنوان « الديانة المحمدية» فى جزءين عرض فى أولهما العقيدة الإسلامية معتمداً على مصادر بالعربية واللاتينية. وفى الجزء الثانى قام بتصحيح الآراء الغربية التى كانت سائدة حينذاك عن تعاليم الإسلام. وقد أثار الكتاب اهتماماً عظيمًا لدرجة أدت إلى إثارة الشبهات حول المؤلف باتهامه بأنه يريد القيام بعمل دعائى للإسلام، فى حين أنه لم يكن يقصد إلا إلى الوصول إلى فهم الدين الإسلامى فهمًا صحيحاً ممهداً السبيل إلى محاربته من جانب المسيحية بطريقة أفضل من ذى قبل.

ولكن الكنيسة الكاثوليكية أدرجت الكتاب فى قائمة الكتب المحرم تداولها. وعلى الرغم من ذلك تُرجم الكتاب إلى اللغات الانجليزية والفرنسية والألمانية والهولندية والإسبانية. ويشير ريلاند فى مقدمة الكتاب إلى ما تتعرض له كل الأديان باستمرار من جانب خصومها، إما بعدم فهمها أو برميها بكل سوء بطريقة تنبئ عن قصد خبيث. وقد تعرض الإسلام إلى مثل ذلك من جانب خصومه مثلما تعرضت الأديان الأخرى. ويقول ريلاند : « إن المرء يصح له حقاً أن يبحث عن الحقيقة حيثما كانت » . ولهذا يريد أن يعرض الإسلام لا كما يظهر من خلال

ضباب الجهل وخبث الناس، وإنما كما يدرس حقيقة فى مساجد المسلمين ومدارسهم. فلم يحدث أن تعرض دين من الأديان فى هذا العالم فى أى عصر من العصور إلى مثل ما تعرض له الإسلام من جانب خصومه من الاحتقار والتشويه والوصف بكل أوصاف السوء. وقد وصل الأمر إلى حد أن من يريد أن يصف نظرية من النظريات بوصف مشين يصفها بأنها نظرية محمدية كما لو كان الأمر أنه لا يوجد فى تعاليم محمد شىء صحيح وأن كل ما فيها فاسد، وإذا أبدى أحد رغبة صادقة فى التعرف على الإسلام لا تقدم له إلا الكتب المضادة الخبيثة والمليئة بالضلالات. ويضيف « ريلاند » قائلاً : ينبغى على المرء بدلاً من ذلك أن يتعلم اللغة العربية وأن يسمع محمداً نفسه وهو يتحدث فى لغته، كما ينبغى على المرء أن يقتنى الكتب العربية وأن يرى بعينه هو وليس بعيون الآخرين، وحينئذ سيتضح له أن المسلمين ليسوا مجانين كما نظن فقد أعطى الله العقل لكل الناس، وقد كان فى رأيى دائماً أن ذلك الدين الذى انتشر انتشاراً بعيداً فى آسيا وإفريقيا، وفى أوربا أيضاً ليس ديناً ماجناً أو ديناً سخيفاً كما يتخيل كثير من المسيحيين.

وبعد ذلك يقول ريلاند : صحيح أن الدين الإسلامى دين سيِّىء جداً وضار بالمسيحية إلى حد بعيد. ولكن أليس من حق المرء لهذا السبب أن يبحثه؟ ألا ينبغى للمرء أن يكتشف أعماق الشيطان وحيله ؟ إن الأحرى هو أن يسعى المرء للتعرف عليه حقيقة لكى يحاربه بطريقة أكثر أماناً وأشد قوة.

وقد تكون عبارات « ريلاند » الأخيرة هذه مجرد ذر للرماد فى العيون حماية لنفسه من بطش الكنيسة التى لم تقتنع بهذه المبررات فحرمت تداول الكتاب لأنها لم تكن تريد للحقيقة أن ترى النور حتى لا يطلع عليها جمهور الناس.

وفى نهاية القرن الثامن عشر وبالتحديد فى عام ١٧٩٥م أنشئت فى باريس مدرسة اللغات الشرقية الحية وبدأت حركة الاستشراق فى فرنسا تتخذ طابعاً علمياً على يد « سلفستر دوساسى » Silvestre de Sacy (ت ١٨٣٨م) الذى أصبح إمام المستشرقين الأوربيين فى عصره.

وفى عام ١٧٧٩م ظهر فى انجلترا مفهوم « مستشرق » Orientalist وسرعان ما ظهر بعد ذلك فى فرنسا عام ١٧٩٩م. وأدرج مفهوم «الاستشراق»Orientalism فى قاموس الأكاديمية الفرنسية عام ١٨٣٨م.

وهناك كثير من المستشرقين ـ وبوجه خاص فى ألمانيا والنمسا ـ بدأوا طريقهم فى مجال الاستشراق مترجمين أو قناصل لدولهم فى الشرق الأوسط : مثل «جوزيف فون هامر برجشتال» (ت ١٨٥٦م) مؤسس أول مجلة استشراقية متخصصة فى أوربا وهى مجلة (ينابيع الشرق) التى صدرت فى «فيينا» من عام ١٨٠٩م إلى عام ١٨١٨م. وفى ذلك الوقت بدأ المستشرقون فى مختلف بلدان أوربا وأمريكا بإنشاء جمعيات لمتابعة الدراسات الاستشراقية. فقد تأسست أولاً الجمعية الآسيوية فى باريس عام ١٨٢٢م ، ثم الجمعية الملكية الآسيوية فى بريطانيا وأيرلندا عام ١٨٢٣م، والجمعية الشرقية الأمريكية عام ١٨٤٢م، والجمعية الشرقية الألمانية عام ١٨٤٥م.

وسرعان ما نشطت هذه الجمعيات فى إصدار المجلات والمطبوعات المختلفة. وفى نهاية القرن التاسع عشر أصبحت الدراسات الإسلامية تخصصاً قائماً برأسه داخل الحركة الاستشراقية العامة. وقد كان كثير من علماء الإسلاميات والعربية فى ذلك الوقت ـ مثل نولدكه وجولد تسيهر وفلهاوزن ـ مشهورين فى الوقت نفسه بوصفهم علماء فى الساميات على وجه العموم أو متخصصين فى الدراسات العبرية أو فى دراسة الكتاب المقدس.

وفى عام ١٨٩٥م ظهرت فى باريس مجلة تمنح اهتمامها بصفة خاصة للعالم الإسلامى وهى مجلة الإسلام، وقد خلفتها فى عام ١٩٠٦م مجلة العالم الإسلامى التى صدرت عن البعثة العلمية الفرنسية فى المغرب، وقد تحولت بعد ذلك إلى مجلة الدراسات الإسلامية.

وفى عام ١٩١٠م ظهرت مجلة « الإسلام » Der Islam الألمانية، وفى «بطرسبرج» بروسيا ظهرت مجلة « عالم الإسلام » Mir Islama عام ١٩١٢م

ولكنها لم تعمر إلا وقتاً قصيراً. وفى بريطانيا ظهرت مجلة « العالم الإسلامى » عام ١٩١١م على يد صمويل زويمر (ت ١٩٥٢م) الذى كان رئيس المبشرين فى الشرق الأوسط.

وقد كان للمد الاستعمارى فى العالم الإسلامى دوره فى استخدام فئة من المستشرقين للمساعدة على تحقيق الأهداف الاستعمارية فى بلاد المسلمين عن طريق دراساتهم الموجهة إلى خدمة الاستعمار. وسنعود إلى الحديث عن هذه النقطة مرة أخرى إن شاء الله.

وقد بقيت هنا فى الحديث عن تاريخ الاستشراق وتطوره نقطة أخرى تتعلق بدور المستشرقين اليهود فى إطار الحركة الاستشراقية والأسباب التى دفعتهم إلى الاستشراق.

إن من الصعب الحصول على إجابة صريحة عن هذه النقطة؛ فقد أغفلت المراجع التى تتحدث عن الاستشراق وتطوره ـ أغفلت الحديث عن هذا الجانب. ونعتقد أن السبب فى ذلك يرجع إلى أن المستشرقين اليهود قد استطاعوا أن يكيفوا أنفسهم ليصبحوا عنصراً أساسياً فى إطار الحركة الاستشراقية الأوربية المسيحية. فقد دخلوا الميدان بوصفهم الأوربى لا بوصفهم اليهودى . وقد استطاع جولد تسيهر فى عصره ـ وهو يهودى مجرى ـ أن يصبح زعيم الإسلاميات فى أوربا، وما زالت كتبه حتى اليوم تحظى بالتقدير العظيم والاحترام الفائق من كافة فئات المستشرقين.

وهكذا لم يرد اليهود أن يعملوا داخل الحركة الاستشراقية بوصفهم مستشرقين يهود حتى لا يعزلوا أنفسهم وبالتالى يقل تأثيرهم. ولهذا عملوا بوصفهم مستشرقين أوربيين وبذلك كسبوا مرتين : كسبوا أولاً فرض أنفسهم على الحركة الاستشراقية كلها، وكسبوا ثانياً تحقيق أهدافهم فى النيل من الإسلام، وهى أهداف تلتقى مع أهداف غالبية المستشرقين المسيحيين.

ويشير المرحوم الأستاذ الدكتور محمد البهى فى كتابه « الفكر الإسلامى

الحديث » (ص ٥٣٤) إلى ملاحظة لبعض الباحثين حول تفسير أسباب إقبال اليهود على الاستشراق.

وتتلخص هذه الملاحظة فى أنهم أقبلوا على الاستشراق لأسباب دينية تتمثل فى محاولة إضعاف الإسلام والتشكيك فى قيمه بإثبات فضل اليهودية عليه بادعاء أن اليهودية فى نظرهم هى مصدر الإسلام الأول. ولأسباب سياسية تتصل بخدمة الصهيونية فكرة أولاً ثم دولة ثانية. ويرى الدكتور البهى أن وجهة النظر هذه على الرغم من أنها لا تعتمد على مصدر مكتوب يؤيدها، فإن الظروف العامة والظواهر المترادفة فى كتابات هؤلاء المستشرقين تعزز وجهة النظر هذه وتضفى عليها بعض خصائص الاستنتاج العلمى.

ونحن فى الواقع لسنا فى حاجة إلى دليل لإثبات كراهية اليهود للإسلام، وذلك لأن هذه الكراهية قد ظهرت واضحة كالشمس منذ ظهور الإسلام. وقد أكد القرآن ذلك فى قوله تعالى :

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ (١).

وقد ظل اليهود طوال تاريخهم يتحينون كل فرصة متاحة ليكيدوا للإسلام والمسلمين. وقد وجدوا فى مجال الاستشراق باباً ينفثون منه سمومهم ضد الإسلام والمسلمين، فدخلوا هذا المجال مستخفين تحت رداء العلم ، كما وجدوا فى الصهيونية باباً آخر يفرضون منه سيطرتهم على العرب المسلمين.

❖❖❖

٣- مواقف المستشرقين :

وبعد هذه النظرة السريعة على تاريخ الاستشراق وتطوره ننتقل إلى الحديث

---

(١) سورة المائدة : آية ٨٢.

عن نقطة أخرى وهى مواقف المستشرقين. وهذا الموضوع يعد موضوعاً حساساً للغاية، إذ إن المواقف الاستشراقية تشتمل ـ من غير شك ـ على بعض الجوانب الإيجابية التى يجب أن تذكر لهم، كما تتمثل فى المواقف الاستشراقية طائفة أخرى من الجوانب السلبية التى يجب أن تسجل عليهم. وحتى نكون موضوعيين فإنه لا بد لنا من الإشارة إلى ما لهم من إيجابيات والتنبيه على ما لديهم من سلبيات. ولا ضير على المرء إذا اعترف بما لعدوه من مزايا، إذ إن ذلك ربما يكون حافزاً لنا على النهوض والاستعداد من جديد، وقبول التحدى الذى تفرضه علينا ـ نحن المسلمين ـ ظروف العصر.

أما هذه الإيجابيات التى سنذكر طرفاً منها هنا فأود أن أنبه إلى أن بعضها يعد أموراً تخص المستشرقين وتتصل بأسلوب عملهم ومدى ترابطهم، والقصد من ذكرها هو مجرد الاعتبار بها فقط، وبعضها الآخر أمور تتصل بإنتاجهم العلمى الذى يعود بعضه بالفائدة على الدارسين العرب، وإن كان المستشرقون قد قصدوا به فى المقام الأول خدمة أنفسهم، ولكنهم مع ذلك لم يحجبوه عن غيرهم.

(أ) الجوانب الإيجابية :

وتتمثل الجوانب الإيجابية للمستشرقين فى الأمور التالية :

١ـ يخدم المستشرقون أهدافهم التى وضعوها لأنفسهم بإخلاص تام لهذه الأهداف وتفان إلى أقصى حد وبكل الوسائل. وعندما أراد المستشرق الهولندى سنوك هورجرونيه أن يكتب كتاباً عن مكة لم يثنه عن عزمه لدراسة مكة على الطبيعة أنه مسيحى لا يجوز له أن يدخل مكة ، فانتحل اسماً إسلامياً هو عبد الغفار ، وزار مكة عام ١٨٨٤م وأقام هناك مدة خمسة أشهر، وكان يجيد العربية كأحد أبنائها. وبعد هذه الرحلة كتب عن مكة كتابين أولهما : الحج إلى مكة، وثانيهما : مكة وجغرافيتها فى القرن التاسع عشر ـ فى جزءين ـ وصف فيه مكة وصفاً دقيقاً شاملاً مع خرائط عديدة. والمستشرقون بصفة عامة لديهم صبر عجيب ونادر فى البحث والدرس وإحاطة تامة بالعديد من اللغات القديمة

والحديثة. وقد أشار الشيخ مصطفى عبد الرازق إلى « الإعجاب بصبرهم ونشاطهم وسعة اطلاعهم وحسن طريقتهم ».

وقال الشيخ أمين الخولى بعد حضوره مؤتمر المستشرقين الدولى الخامس والعشرين: « لقد قدمت السيدة كراتشكوفسكى بحثاً عن نوادر مخطوطات القرآن فى القرن السادس عشر الميلادى. وإنى أشك فى أن الكثيرين من أئمة المسلمين يعرفون شيئاً عن هذه المخطوطات. وأظن أن هذه مسألة لا يمكن التساهل فى تقديرها ».

٢ـ هناك ترابط بين جماعات المستشرقين فى مختلف البلدان وتنسيق مستمر وتعاون وتكامل فى مجالات الدراسات العربية والإسلامية. فقنوات الاتصال بينهم قائمة ومستمرة عن طريق المؤتمرات المنتظمة والدوريات والحوليات والمجلات والنشرات والمطبوعات المختلفة. وقد بلغ عدد المؤتمرات الدولية للمستشرقين منذ عام ١٨٧٣م حتى عام ١٩٦٨م ثلاثين مؤتمراً. وهذا عدا المؤتمرات والندوات واللقاءات الإقليمية. وتضم المؤتمرات الدولية مئات العلماء ، فمثلاً مؤتمر «أكسفورد » كان يضم ٩٠٠ عالم من ٢٥ دولة و ٨٥ جامعة و ٦٩ جمعية علمية. ومجموعات العمل فى كل مؤتمر تبلغ أربع عشرة مجموعة تختص كل منها ببحث قطاع معين من الدراسات الاستشراقية.

٣ ـ التوفر على موضوع معين من الدراسات العربية والإسلامية وقضاء العمر كله فى البحث والاستقصاء لاستيفاء شتى جوانبه. ولهذا نجد أن لديهم معرفة جيدة بكل ما ينشر عن الدراسات الإسلامية والعربية فى بلادنا العربية. وكتاباتهم الخاصة والعامة عامرة بشتى المراجع العربية والإسلامية قديمها وحديثها. وهناك حقيقة يعرفها كل من خالط المستشرقين وهى أن المستشرق المتمكن لا تأخذه العزة بالإثم إذا ما نبهته إلى خطأ وقع فيه نتيجة لعدم فهمه لروح اللغة العربية.

٤ـ دائرة المعارف الإسلامية ـ على ما لنا نحن المسلمين عليها من مآخذ ـ وتعد هذه الدائرة ثمرة من ثمار التعاون العلمى الدولى بين المستشرقين. وقد تم إصدارها

فى طبعتـها الأولى بالانجليزية والفـرنسية والألمانية فى الفـترة من عام ١٩١٣م إلى عام ١٩٣٨م وقد ترجمت إلى العـربية حتى حرف العين. وقد أصدر المسـتشرقون طبعة جديـدة أعـيدت فيها كتابـة المقالات بنـاء على مـا صـدر من بحوث حديثة وما نشر أو اكتشف من مخطوطات. وقد بدأ ظهور هذه الطبعة الجديدة اعتباراً من عام ١٩٥٤م وقد صدر منها حتى الآن خمسة مجلدات بالانجليزية والفرنسية.

٥ـ تاريخ الأدب العـربى لبـروكلمـان (ت ١٩٥٦م) وهو كتـاب أسـاسى فى الدراسات العربيـة لا يستغنى عنه باحث فى الدراسات العربيـة والإسلامية. وهذا الكتاب لا يقـتصر على الأدب العربى وفقـه اللغة، بل يشمل كل ما كـتب باللغة العربيـة من المدونات الإسلاميـة. فهو سجل للمـصنفات العربيـة المخطوط منها، والمطبوع، ويكتمل بمعـلومات عن حياة المؤلفين. وقد صـدر أولاً فى مجلدين عام ١٨٩٨م وعام ١٩٠٢م ثم أتبعه المؤلف بثلاث مجلدات تكميلية كبيرة فى الفترة من ١٩٣٧م إلى ١٩٤٢م ثم أعـاد نشـر المجلدين الأسـاسيين فـى عام ١٩٤٣م وعـام ١٩٤٩م فى طبعة أخرى معدلة ليتناسب تعـديلهما مع المجلدات الثلاثة التكميلية. وقد وافق المؤلف على طلب الجـامعة العـربية ترجمـة الكتاب إلى اللغة العـربية. ولكن المشروع ما زال للأسف يتعثر حتى الآن. ويقوم الباحث التركى المسلم «فؤاد سيـزكين»، تلمـيذ المسـتشـرق الألمانى «هلموت ريتـر» ـ بعد اكـتشـاف آلاف المخطوطات ـ يقوم بإكمال عمل «بروكلمـان» وذلك فى كتابه «التراث العربى» بالألمانية الذى ترجم بعضـه إلى العربية، ومنح عليه جائـزة الملك فيصل منذ بضع سنوات. والحق يقال أنه لولا كتاب بروكلمان لما كان كتاب «فؤاد سيزكين».

٦ـ جـمع المخطوطات العـربية من كل مكـان وبشتى السـبل، والعـمل على حفظها وصيانتها من التلف والعناية بها عناية فائقة، وفهرستها فهرسة نافعة تصف المخطوط وصفـاً دقيقـاً، وبذلك وضعت تحت تصرف البـاحثين الراغبين فى مـقر وجـودها أو طلب تصـويرها بلا روتـين أو إجـراءات مـعـقـدة. وقد قـام مثـلاً «ألوارد» Ahlwardt بوضع فهـرس للمخطوطات العربية فى مكتـبة «برلين» فى عشـرة مجلدات بلغ فيـه الغاية فنًا ودقة وشمـولاً، وصدر هذا الفهـرس فى نهاية

القرن الماضى واشتمل على فهرس لنحو عشرة آلاف مخطوط. وقد قام المستشرقون فى كافة الجامعات والمكتبات الأوربية بفهرسة المخطوطات العربية فهرسة دقيقة. وتقدر المخطوطات العربية الإسلامية فى مكتبات أوربا بعشرات الآلاف بل قد يصل عددها إلى مئات الآلاف.

وهنا أيضاً كلمة حق يجب أن تقال وهى أن انتقال هذا العدد الهائل من المخطوطات إلى أوربا بوسائل شرعية أو غير شرعية قد هيأ لها أحدث وسائل الحفظ والعناية الفائقة والفهرسة الدقيقة. وعندما أقول هذا أشعر بالأسى والحسرة لحال المخطوطات النادرة فى كثير من بلادنا العربية والإسلامية وما آل إليه حال الكثير منها من التلف والتآكل وصعوبة أو استحالة الاستفادة منها.

٧ـ للمستشرقين باع طويل فى مجال المعاجم. وأخص بالذكر هنا المعجم المفهرس لألفاظ الحديث الشريف، الذى يشمل كتب الحديث الستة المشهورة بالإضافة إلى مسند الدارمى وموطأ مالك ومسند الإمام أحمد بن حنبل. وقد تم نشره فى سبعة مجلدات فى الفترة من عام ١٩٣٦م حتى عام ١٩٦٩م. وتفيد منه كافة المعاهد والجامعات الإسلامية فى العالم. وقد تعاون على إخراجه عدد من المستشرقين المعروفين. ونشير أيضاً إلى الجهد الذى بذله « أوجست فيشر » (ت١٩٤٩م) فى معجم اللغة العربية القديمة مرتباً حسب المصادر. فقد قضى فيشر أربعين عاماً فى جمعه وتنسيقه وتعاون معه عدد من المستشرقين.

٨ـ قام المستشرقون بنشر الكثير من أمهات كتب التراث. وقد عرفنا الكثير من هذا التراث محققاً ومطبوعاً على أيديهم. ولم يقتصر الأمر على نشر النصوص العربية بل قاموا أيضاً بترجمة مئات الكتب العربية الإسلامية إلى كافة اللغات الأوربية.

(ب) الجوانب السلبية :

وبعد هذه النظرة التى ألقيناها على ما للمستشرقين من إيجابيات يحق لنا الآن أن ننبه إلى الجوانب السلبية فى تفكيرهم ودراساتهم. وتنصب النواحى السلبية

بصفة أساسية على دراساتهم عن الإسلام وما يتصل به. وفيما يلى نعرض نماذج من هذه السلبيات:

١ـ يعد الاستشراق أسلوباً خاصاً فى التفكير ينبنى على تفرقة أساسية بين الشرق والغرب. « فالشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا » كما قال الشاعر الاستعمارى المشهور « كبلنج »Kipling.

فالغربيون عقليون محبون للسلام متحررون منطقيون وقادرون على اكتساب قيم حقيقية ، أما الشرقيون فليس لهم من ذلك كله شيء.

ولكن هناك حقيقة مهمة يتجاهلها المستشرقون ببساطة، وهى أن الحضارة الغربية ـ التى يصفونها باعتزاز بأنها حضارة مسيحية ـ مبنية فى الأصل على تعاليم رجل شرقى وهو المسيح عليه السلام، وعلى ما نقلوه عن العرب من علوم عربية ومن تراث قديم تطور على أيدى العرب. وهذه الحقيقة تجعل هذه التفرقة المبدئية إلى شرق وغرب والتى يعتمد عليها الاستشراق أمراً مخالفاً للمنطق. فالمسيحية دين شرقى. والزعم بأن الغرب متقدم لأنه يدين بالمسيحية والشرق متخلف لأنه يدين بالإسلام، زعم لا أساس له من العلم ولا من الواقع، فالتقدم الذى يشهده الغرب اليوم فى مجال العلم والتكنولوچيا لا علاقة له بالمسيحية كدين، والتخلف الذى يعانى منه الشرق لا يتحمل الإسلام وزره. فهذا التخلف يعد ـ كما يقول المرحوم « مالك بن نبى » عقوبة مستحقة من الإسلام على المسلمين لتخليهم عنه لا لتمسكهم به كما يزعم الزاعمون.

٢ـ الاستشراق ـ من بين شتى العلوم الأخرى ـ لم يطور كثيراً فى أساليبه ومناهجه. وفى دراسته للإسلام لم يتخلص قط من الخلفية الدينية للجدل اللاهوتى العقيم الذى انبثق منه الاستشراق أساساً. ولم يتغير شيء من هذا الوضع حتى اليوم باستثناء بعض الشواذ. وتخدم اليوم وسائل الإعلام المتعددة فى الغرب تأكيد وتقوية الوضع التقليدى الذى ما يزال ينظر إلى الإسلام إلى حد كبير بمنظار القرون الوسطى. ولعل هذا هو ما دعا السكرتير العام للمجلس الإسلامى الأوربى

فى شهر يناير ١٩٧٩م إلى التنديد بوسائل الإعلام الغربية لموقفها من الإسلام، ووصفه لهذا الموقف بالإجحاف والافتراء على حقائق الدين وتشويهها.

وهذا كله يحدث على الرغم من أن مجلس الفاتيكان قد أشاد فى أكتوبر ١٩٦٥م بالحقائق التى جاء بها الإسلام والتى تتعلق بالله وقدرته ويسوع ومريم والأنبياء والمرسلين، وعلى الرغم أيضاً من قول المستشرق الألمانى المعاصر « رودى بارت » : إن الدراسات الاستشراقية منذ منتصف القرن التاسع عشر تنحو نحو البحث عن الحقيقة الخالصة ولا تسعى إلى نوايا جانبية غير صافية.

وللمستشرق الفرنسى المعاصر « رودنسون » وجهة نظر أخرى حيث يذهب إلى القول بأن هناك ثورة فى التفكير قد حدثت فى التصورات الأوربية للإسلام، الأمر الذى جعل التقييم المسيحى لمحمد ﷺ مسألة حساسة. فلم يعد بإمكانهم الزعم الكاذب بأنه « محتال شيطانى » كما كان عليه الحال فى العصور الوسطى. وفى الوقت الذى نجد فيه بعض المفكرين المسيحيين الذين يهتمون بالمشكلة يعلقون الحكم بحذر، فإننا نجد لبعض الكاثوليك المتخصصين فى الإسلام يعتبرون محمداً ﷺ « عبقرياً دينياً » ويتساءل آخرون عما إذا كان فى الإمكان اعتباره ـ بطريقة ما ـ نبياً حقيقياً ما دام القديس توماس الإكوينى يقول بالنبوة التوجيهية التى لا تعنى بالضرورة العصمة والكمال. ومعنى هذا الكلام هو عدم الاعتراف بالنبوة الحقيقية للنبى ﷺ التى تعنى اصطفاء إلهياً ووحياً سماوياً وعصمة ربانية.

والواقع أنه ليس بالأمر الغريب أن يختلف المستشرقون معنا ـ نحن المسلمين ـ فى الرأى حول الإسلام، وإنما الغريب أن يتفقوا معنا فى الرأى. وذلك لأن منطلق تفكيرهم بالنسبة للإسلام ونبيه يختلف عن المنطلق الذى يصدر عنه تفكير المسلمين. ولهذا تختلف وجهات النظر بيننا وبينهم وستظل مختلفة فلا ننتظر منهم أن يتبنوا وجهة نظرنا التى تنظر إلى الإسلام على أنه دين سماوى ختم به الله الرسالات السماوية وأن محمداً خاتم النبيين، وأن القرآن وحى الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لأنهم لو فعلوا ذلك لأصبحوا مسلمين. وهذا

ما حدث فعلاً بالنسبة للبعض منهم ممن تحول إلى الإسلام. وهذا التحول إلى الإسلام يعنى فى الوقت نفسه التحول عن الخط الاستشراقى.

ونحن لا نطلب من كل مستشرق أن يغير معتقده ويعتقد ما نعتقده عندما يكتب عن الإسلام. ولكن هناك أوليات بديهية يتطلبها المنهج العلمى السليم. فعندما أرفض وجهة نظر معينة لا بد أن أبين للقارئ أولاً وجهة النظر هذه من خلال فهم أصحابها لها، ثم لى بعد ذلك أن أخالفها.

وعلى هذا الأساس نقول :

إن الكيان الإسلامى كله يقوم على أساس الإيمان بالله ورسوله محمد ﷺ الذى تلقى القرآن وحياً من عند الله. ويجب على العالم النزيه والمؤرخ المحايد أن يقول ذلك لقرائه عندما يتعرض للحديث عن الإسلام حتى يستطيع القارئ أن يفهم سر قوة هذا الإيمان فى تاريخ المسلمين، ثم له بعد ذلك أن يخالف المسلمين فى معتقدهم وتصوراتهم. أما أن يعرض المستشرق الإسلام بادئ ذى بدء من خلال تصورات سابقة مبنية على خيالات وأوهام فهذا ما لا يقره علم ولا خلق. وهذا ما يجعلنا نقول ـ مع الدكتور حسين مؤنس ـ : إن محمداً الذى يصوره المستشرقون ليس هو محمد الذى نؤمن برسالته، وإنما هو شخص آخر من صنع خيالهم، والإسلام الذى يعرضونه فى كتبهم ليس هو الإسلام الذى ندين به، وإنما هو إسلام من اختراعهم.

وهكذا يمكن القول بأن الاستشراق ـ فى دراسته للإسلام ـ ليس علماً بأى مقياس علمى، وإنما هو عبارة عن أيديولوچية خاصة يراد من خلالها ترويج تصورات معينة عن الإسلام بصرف النظر عما إذا كانت هذه التصورات قائمة على حقائق أو مرتكزة على أوهام وافتراءات. وهذا يذكرنا بما كان يفعله السوفسطائيون قديماً. فإذا وصفنا المستشرقين فى دراستهم للإسلام ـ إلا بعض الشواذ منهم ـ إذا وصفناهم بأنهم السوفسطائيون الجدد فنحن بذلك لم نتجن عليهم على الإطلاق. ولكن الإنصاف يقتضينا أيضاً أن نقول : إن الدراسات الاستشراقية كلما كانت

بعيدة عن مجالات العقيدة الإسلامية كانت أقرب إلى الموضوعية وأبعد عن التحامل.

٣ ـ يعمد المستشرقون إلى تطبيق المقاييس المسيحية على الدين الإسلامى وعلى نبيه. فالمسيح ـ فى نظر المسيحيين ـ هو أساس العقيدة، ولهذا تنسب المسيحية إليه. وقد طبق المستشرقون ذلك على الإسلام واعتبروا أن محمداً يعنى بالنسبة للمسلمين ما يعنيه المسيح بالنسبة للمسيحية، ولهذا أطلقوا على الإسلام ـ اسم « المذهب المحمدى Mohammedanism » ولكن هناك سبباً آخر لاستخدام هذا الوصف لدى الكثيرين منهم وهو إعطاء الانطباع بأن الإسلام دين بشرى من صنع محمد وليس من عند الله. أما نسبة المسيحية إلى المسيح فلا تعطى هذا الانطباع لديهم لاعتقادهم أن المسيح ابن الله. وتتم مقارنة أخرى بين محمد والمسيح يكون المسيح فيها هو المقياس : فمحمد مزواج وشهوانى فى مقابل المسيح العفيف الذى لم يتزوج، ومحمد محارب وسياسى أما يسوع فهو مسالم مغلوب ومعذب يدعو إلى محبة الأعداء . . . وهكذا.

٤ـ الخلط بين الإسلام كدين وتعاليم ثابتة فى القرآن الكريم والسنة الصحيحة وبين الوضع المتردى للعالم الإسلامى فى عالم اليوم. فإسلام الكتاب والسنة يعد فى نظر مستشرق معاصر مثل كيسلنج إسلاماً ميتاً. أما الإسلام الحى الذى يجب الاهتمام به ودراسته فهو ذلك الإسلام المنتشر بين فرق الدراويش فى مختلف الأقطار الإسلامية، وهو تلك الممارسات السائدة فى حياة المسلمين اليوم بصرف النظر عن اقترابها أو ابتعادها من الإسلام الأول.

٥ـ التأكيد على أهمية الفرق المنشقة عن الإسلام كالبابية والبهائية والقاديانية والبكداشية وغيرها من فرق قديمة وحديثة، وتعميق الخلاف بين السنة والشيعة. ودائماً يعتبرون المنشقين أصحاب فكر ثورى تحررى عقلى ، ودائماً يهتمون بكل غريب وشاذ، ودائماً يقيسون ما يرونه فى العالم الإسلامى على ما لديهم من قوالب مصبوبة جامدة.

وقد أشار المستشرق رودنسون إلى ذلك حين قال : « ولم ير المستشرقون فى

الشرق إلا ما كانوا يريدون رؤيته، فاهتموا كثيراً بالأشياء الصغيرة والغريبة، ولم يكونوا يريدون أن يتطور الشرق ليبلغ المرحلة التى بلغتها أوربا، ومن ثم كانوا يكرهون النهضة فيه ».

٦ـ يفتقد المرء الموضوعية فى كتابات معظم المستشرقين عن الدين الإسلامى فى حين أنهم عندما يكتبون عن ديانات وضعية مثل البوذية والهندوكية وغيرها يكونون موضوعيين فى عرضهم لها. فالإسلام فقط من بين كل الديانات التى ظهرت فى الشرق والغرب هو الذى يُهاجَم. والمسلمون فقط من بين الشرقيين جميعاً هم الذين يوصمون بشتى الأوصاف الدنيئة. ويتساءل المرء : لماذا ؟.

ولعل تفسير ذلك يعود إلى أن الإسلام كان يمثل بالنسبة لأوربا صدمة مستمرة. فقد كان الخوف من الإسلام هو القاعدة. وحتى نهاية القرن السابع عشر كان « الخطر العثمانى » رابضاً عند حدود أوربا ويمثل ـ فى اعتقادهم ـ تهديداً مستمراً بالنسبة للمدنية المسيحية كلها.

ولهذا يمكن القول ـ كما يقول إدوارد سعيد ـ بأن الاستشراق من الناحية النفسية يعد صورة من صور جنون الاضطهاد.

فالإسلام ـ إذن ـ حتى فى عصر ضعف أتباعه لا يزال يمثل تحدياً على كافة المستويات. فهل يعى المسلمون هذه الحقيقة؟ .

ومن هنا يمكن فهم ما يقوله « موير » Muir : « إن سيف محمد والقرآن هما أكثر الأعداء الذين عرفهم العالم حتى الآن عناداً ضد الحضارة والحرية الحقيقية »، وما يزعمه فون جرونيباوم من أن الإسلام ظاهرة فريدة لا مثيل لها فى أى دين آخر أو حضارة أخرى. فهو دين غير إنسانى وغير قادر على التطور والمعرفة الموضوعية. وهو دين غير أخلاقى وغير علمى واستبدادى.

وهكذا يتضح الحقد الدفين على الإسلام باستمرار بمثل هذه الافتراءات التى ليس لها فى سوق العلم نصيب.

٧ـ يعطى الاستشراق لنفسه فى دراسته للإسلام موقف ممثل الاتهام والقاضى.

فبينما نجد مثلاً أن علم التاريخ يحاول أن يفهم فقط ولا يضع موضع الشك أسس المجتمع الذى يدرسه، نجد الاستشراق يعطى لنفسه حق الحكم بل حق الاتهام والرفض للأسس الإسلامية التى يقوم عليها المجتمع الإسلامى. وذلك ناتج عن نوايا مسبقة لا يمكن ـ بحال من الأحوال ـ أن تكون نوايا علمية صافية كما يدعى المستشرق رودى بارت.

٨ـ تحالف فريق من المستشرقين مع الاستعمار الذى أذل العالم الإسلامى حقبة من الزمان فى العصر الحديث. ويقول المستشرق المعاصر « اشتيفان فيلد» بصدد الإشارة إلى تلك الفئة من المستشرقين : « والأقبح من ذلك أنه توجد جماعة يسمون أنفسهم مستشرقين، سخروا معلوماتهم عن الإسلام وتاريخه فى سبيل مكافحة الإسلام والمسلمين. وهذا واقع مؤلم لا بد أن يعترف به المستشرقون المخلصون لرسالتهم بكل صراحة ».

ومن بين الأمثلة العديدة فى هذا الصدد نذكر المستشرق « كارل هينريش بيكر » (ت ١٩٣٣م) مؤسس « مجلة الإسلام » الألمانية. فقد قام بدراسات تخدم الأهداف الاستعمارية الألمانية فى إفريقيا. أما «بارتولد» Barthold (ت ١٩٣٠م) مؤسس مجلة Mir Islama الروسية فقد تم تكليفه عن طريق الحكومة الروسية بالقيام ببحوث تخدم مصالح السيادة الروسية فى آسيا الوسطى. أما عالم الإسلاميات الهولندى الشهير « سنوك هورجرونيه » (ت ١٩٣٦م) فقد لعب دوراً مهماً فى تشكيل السياسة الثقافية والاستعمارية فى المناطق الهولندية فى الهند الشرقية، وشغل مناصب قيادية فى السلطة الاستعمارية الهولندية فى إندونيسيا، أما المستشرق الفرنسى المعروف ماسنيون فقد كان مستشاراً لوزارة المستعمرات الفرنسية فى شئون شمال إفريقيا. وغير هؤلاء كثيرون وضعوا أنفسهم وعلمهم ودراساتهم فى خدمة الاستعمار ضد الإسلام والمسلمين.

٩ـ الدعوة إلى إصلاح الإسلام : يزعم المستشرقون أن الإسلام دين جامد، وأنه لم يعد مسايراً لروح العصر. ولذلك فهو فى حاجة إلى إصلاح جذرى. وفى

ذلك يقول أحد المستشرقين : « إن على الإسلام إما أن يعتمد تغييراً جذرياً فيه أو أن يتخلى عن مسايرة الحياة ». وهذه دعوة يوجهها إلى المسلمين غريب عنهم بشأن ما ينبغى عليهم أن يفعلوه فى دينهم. وهذا الإصلاح المزعوم يمثل محاولة من محاولات تغيير وجهة نظر المسلم عن الإسلام، وجعل الإسلام أقرب إلى المسيحية بقدر الإمكان.

ولعله من نافلة القول أن نشير هنا إلى أن الإسلام يشتمل على أصول لا يملك أحد أن يغير فيها شيئاً وهى عقائد الإسلام الأساسية. ويشتمل على فروع وهى قابلة للتغيير حسب المصلحة الإسلامية، وأن الإصلاح الذى نفهمه نحن المسلمين هو إصلاح للفكر الإسلامى الذى هو فى حاجة إلى المراجعة المستمرة حتى يتلاءم مع متطلبات العصر وحاجات الأمة فى إطار من التعاليم الإسلامية.

ولكن الدعوة إلى إصلاح الإسلام أو تحديثه ـ كما يقال أحياناً ـ ليست بهذا المفهوم، وإنما هى عبارة عن تفريغ الإسلام من مضمونه وعزله كلية عن تنظيم أمور المجتمع، وجعله مجرد تعاليم خلقية شأنه فى ذلك شأن الديانة المسيحية.

ويتورط البعض من أبناء المسلمين فى حمل لواء الدعوة إلى إصلاح الإسلام كما يفهمها المستشرقون. ومن أحدث الكتب فى هذا الشأن كتاب صدر فى ألمانيا الغربية فى العام الماضى (١٩٨١م) بعنوان أزمة الإسلام الحديث ـ لمؤلف عربى مسلم يعمل أستاذاً فى جامعة فرانكفورت بألمانيا، يدعو فيه بحماس إلى الأخذ بالنموذج الغربى فى الإصلاح المتمثل فى جعل الدين مجرد تعاليم خلقية لا تكاليف إلزامية. فذلك ـ فى نظره ـ هو الحل الوحيد لأزمة الإسلام. وبذلك يتم إبعاد الدين كلية عن التدخل فى شئون الحياة حسب النموذج العلمانى الغربى.

وهكذا نوفر نحن أبناء المسلمين على المستشرقين بذل الجهد فى هذا السبيل، ونتولى نحن الدعوة إلى تحقيق الأهداف التى عاشوا قروناً طويلة يعملون من أجلها دون جدوى.

٤ - موقفنا من الاستشراق :

والآن ـ وبعد أن اتضحت لنا بعض الشيء أبعاد المواقف الاستشراقية بخيرها وشرها ـ لا بد لنا من الحديث عن موقفنا ـ نحن المسلمين ـ من الاستشراق ـ وهذا يستدعينا أن نتذكر ما كان يفعله أسلافنا فى مثل هذه المواقف.

لقد كانت التيارات الفكرية الأجنبية القديمة ـ التى كانت تمثل تحدياً للإسلام والفكر الإسلامى الأصيل فى عصور الإسلام الزاهرة ـ كانت حافزاً للمسلمين فى تلك الأيام الخوالى للوقوف أمامها بقوة وصلابة. وقد كانت المواجهة على مستوى التحدى بل تفوقه. فقد هضم الفكر الإسلامى تلك التيارات هضماً دقيقاً واستوعبها استيعاباً تاماً ثم كانت له معها وقفته الصلبة وبنفس الأسلحة الفكرية.

فالمواجهة ـ إذن ـ كانت مواجهة فكرية. وكأن التاريخ الآن يعيد نفسه، فالحرب الآن بين الإسلام والتيارات المناوئة له حرب أفكار، والمعركة معركة فكرية، ولهذه المعركة أدواتها التى يجب التسلح بها، فالخسران فى هذه المعركة أشد وطأة وأقوى تأثيراً وأعظم فتكاً من خسارة أية معركة حربية أياً كان حجمها.

لننظر مثلاً نموذجاً رائداً فى تاريخ الفكر الإسلامى . . إنه حجة الإسلام الغزالى الذى خاض غمار معارك فكرية عديدة وخرج منها جميعاً منتصراً، فماذا كان يفعل؟

يقول الغزالى فى كتابه (المنقذ من الضلال) : « إنه لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم حتى يساوى أعلمهم من أهل ذلك العلم، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم وإذ ذاك يمكن أن يكون ما يدّعيه من فساده حقاً ».

وقياساً على ما يقوله الإمام الغزالى نجد أن استيعاب الإنتاج الاستشراقى حول الإسلام ودراسته دراسة عميقة هو الخطوة الأولى لنقده نقداً صحيحاً وإثبات

ما يتضمنه من تهافت أو زيف، الأمر الذى يجعل المستشرقين يفكرون ألف مرة قبل أن يكتبوا تحسباً لما قد يواجههم من نقد علمى يعريهم ويثبت زيف ادعاءاتهم.

ويؤكد هذه الحقيقة المستشرق الفرنسى مكسيم رودنسون حين يشير إلى أن هناك طريقاً واحداً فقط لنقد المستشرقين. وهذا الطريق يسير عبر دراسة تفصيلية لمؤلفاتهم، ويجب أن يرتبط نقدنا لإنتاج المستشرقين بنقد ذاتى حقيقى بصفة مستمرة، يجب أن نواجه أنفسنا مواجهة حقيقية بعيوبنا وقصورنا وتقصيرنا، وأن نكون على وعى حقيقى بالمشكلات التى تواجهنا فى هذا العالم المعاصر.

وقد يتمثل الجانب الإيجابى للاستشراق فى صورة الهجوم علينا وعلى أمجادنا وليس فى صورة المدح، وكلنا نعلم أن هناك عدداً لا بأس به من المستشرقين قد مدحوا حضارتنا فى مؤلفاتهم وأثنوا على علمائنا ومجدوا تراثنا، وآخرهم المستشرقة الألمانية المعاصرة زيجريد هونكه فى كتابها (شمس الله تسطع على الغرب). ولكن جانب المدح والثناء قد يكون له تأثير تخديرى علينا، فيجعلنا نغمض عيوننا مستسلمين لتلك الأحلام السعيدة التى تذكرنا بالعز الذى كان، ونركن إلى ذلك ونعيش على صيت آبائنا وأجدادنا، ونظن أننا عظماء لأن أجدادنا كانوا عظماء، ورحم الله جمال الدين الأفغانى الذى كان يقول : « إن المسلمين أصبحوا كلما قال لهم الإنسان: كونوا بنى آدم، أجابوه أن آباءنا كانوا كذا وكذا وعاشوا فى خيال ما فعل آباؤهم غير مفكرين بأن ما كان عليه آباؤهم من الرفعة لا ينفى ما هم عليه من الخمول والضعة. إن الشرقيين كلما أرادوا الاعتذار عما هم فيه من الخمول الحاضر قالوا : أفلا ترون كيف كان آباؤنا ؟ نعم قد كان آباؤكم رجالاً، ولكنكم أنتم أولاء كما كنتم، فلا يليق بكم أن تتذكروا مفاخر آبائكم إلا أن تفعلوا فعلهم ».

ومن هنا نقول إن الجانب الهجومى التفنيدى الاستفزازى فى إنتاج المستشرقين قد يكون بالنسبة لنا خيراً من جانب المدح تأكيداً للمثل المعروف «رب ضارة نافعة»، فقد يكون هذا الاستفزاز حافزاً لنا لنخرج من حالة الركود الفكرى التى

وصلنا إليها لننطلق من جديد، فننهض ونبنى أفكارنا من جديد ونعيد ترتيب صرح ثقافتنا، وبذلك نقبل التحدى ونستجيب له فننهض من كبوتنا. ولعل هذا ينطبق على تفسير توينبى للحضارة بأنها استجابة للتحدى بمعنى أنها رد معين يواجه به شعب من الشعوب تحدياً معيناً.

وهذا الرد ليس مجرد استنفاد الطاقات فى رد الهجوم وترقب الطعنات للرد عليها، وإنما هو الرد الفعال الذى ينتقل إلى الموقف الأقوى. فلا يجوز أن نقف دائماً موقف المعتدى عليه، فالمعتدى عليه غالباً ما يكون ضعيفاً. ولهذا لا بد من أن نغير وضعنا، وذلك لن يكون إلا بتغيير أفكارنا، فنحن لسنا متخلفين لقلة أشيائنا، ولكن تخلفنا لقلة أفكارنا وتبدد جهودنا، ولن تتغير أحوالنا إلا بتغيير ما فى نفوسنا: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[1].

ولا بد لنا من أن نعترف بأن الاستشراق يستمد قوته من ضعفنا، ووجوده نفسه مشروط بعجز العالم الإسلامى عن معرفة ذاته. فالاستشراق فى حد ذاته كان دليل وصاية فكرية. ويوم أن يعى العالم الإسلامى ذاته وينهض من عجزه ويلقى من على كاهله أثقال التخلف الفكرى والحضارى ـ يومها سيجد الاستشراق نفسه فى أزمة، وخاصة الاستشراق المشتغل بالإسلام، ويومها لن يجد الجمهور الذى يخاطبه لا فى أوربا ولا فى العالم الإسلامى.

ولكى نكون أكثر وضوحاً وأكثر تحديداً فى تصوير ما ينبغى علينا أن نقوم به لمواجهة الاستشراق نذكر فيما يلى بعض النقاط التى نعتقد أنها أمور أساسية فى هذا المجال :

١ـ علينا أن ننظر إلى حركة الاستشراق بكل جدية، ونأخذ فى حسابنا أن لها آثاراً عظيمة على قطاعات عريضة من المثقفين فى العالم الإسلامى وفى العالم الغربى على السواء. ولهذا لا بد من التوفر على دراسة الاستشراق دراسة عميقة.

---

(١) سورة الرعد : آية ١١.

وليس يكفى أن نقول إن ما يكتبونه كلام فارغ، فهذا الكلام الفارغ مكتوب بشتى اللغات الحية ومنتشر انتشاراً واسعاً على مستوى عالمى. ومواجهته لا بد أن تكون على نفس المستوى العالمى، وبالكلام المليان على حد تعبير الدكتور حسين مؤنس.

٢ـ بدلاً من أن نظل نقتات فكرياً من دائرة المعارف الإسلامية التى قام بإعدادها المستشرقون قبل الحرب العالمية الثانية والتى تجاوزوها ويقومون منذ سنوات بإصدار دائرة معارف إسلامية جديدة ـ علينا أن نقوم نحن المسلمين بإصدار دائرة معارف إسلامية باللغة العربية واللغات الأوربية الرئيسية تقف على الأقل فى مستوى دائرة المعارف الإسلامية للمستشرقين تخطيطاً وتنظيماً وتتفوق عليها علمياً، وتنقل وجهة النظر الإسلامية فى شتى فروع الدراسات الإسلامية والعربية إلى المسلمين وغير المسلمين على السواء.

فكل فراغ فكرى لدينا لا نشغله بأفكار من عندنا يكون عرضة للاستجابة لأفكار منافية وربما معادية لأفكارنا، فلا نلومن عندئذ إلا أنفسنا.

٣ـ علينا أن نوحد جهودنا فى العالم الإسلامى لإقامة مؤسسة إسلامية علمية عالمية لا تنتمى بالولاء إلى بلد إسلامى معين ولا لمذهب سياسى أو فكرى أو دينى معين، بل يكون ولاؤها الأول والأخير لله وحده ولرسوله محمد ﷺ، وتستطيع استقطاب الكفاءات العلمية الإسلامية فى شتى أنحاء العالم، وتقف على قدم المساواة مع الحركة الاستشراقية ويكون لها دوريات ومجلات علمية ذات مستوى رفيع تنشر بحوثها بلغات مختلفة، وتعمل على استعادة أصالتنا الفكرية واستقلالنا فى ميدان الأفكار، فهذا هو الطريق الصحيح إلى الاستقلال الاقتصادى والسياسى، إذ إن المجتمع الذى لا يصنع أفكاره الرئيسية لا يمكنه ـ على أية حال ـ أن يصنع المنتجات الضرورية لاستهلاكه ولا المنتجات الضرورية لتصنيعه.

والأمر الذى يؤسف له حقاً هو أننا على امتداد العالم الإسلامى بسكانه الذين تجاوزوا الألف مليون وبكل ما لنا من إمكانات هائلة لا نملك مؤسسة علمية دولية

لها نفس الإمكانات العلمية والمادية التى تملكها المؤسسة الاستشراقية. أليس هذا من الأمور التى تدعو إلى الأسى والحسرة ؟

٤ـ لا بد أن تكون لنا مؤسسة تبشيرية عالمية، وأعنى بذلك جهازاً للدعوة الإسلامية فى الخارج يدعو للإسلام ـ من ناحية ـ ويرعى المسلمين الجدد ـ من ناحية ثانية ـ ويحمى المسلمين بالوراثة ـ من ناحية ثالثة.

ولا بد من إصدار كتب إسلامية باللغات العالمية الحية تصحح التصورات الخاطئة عن الإسلام فى الأذهان وتعرض الإسلام بأسلوب علمى يتناسب مع العقلية المعاصرة، وتقدم الحلول الإسلامية لمشكلات المسلمين العصرية.

٥ـ لا بد من إعداد ترجمة مقبولة لمعانى القرآن باللغات الحية نسد بها الطريق على عشرات الترجمات المنتشرة الآن بشتى اللغات والتى قام بإعدادها المستشرقون وصدورها فى غالب الأحيان بمقدمات مملوءة بالطعن على الإسلام. ولا بد أيضاً من اختيار مجموعة كافية ومناسبة من الأحاديث النبوية الصحيحة وترجمتها أيضاً لتكون مع ترجمة معانى القرآن فى متناول المسلمين غير الناطقين بالعربية وفى متناول غير المسلمين الذين يريدون فهم الإسلام من منابعه الأصلية.

٦ـ العمل على تنقية التراث الإسلامى حتى يكون غذاء فكرياً صالحاً للمسلم. فتراثنا فيه الغث وفيه السمين. ومع أن الإسلام لا يتحمل وزر الخرافات والأوهام والإسرائيليات التى تشتمل عليها بعض كتب التراث لدينا، فإن المستشرقين يستخدمون هذا التراث بكل ما فيه. ويكفى أن نشير فى هذا الصدد إلى مثال واحد وهو قصة الغرانيق المذكورة فى كتبنا والتى ركز عليها المستشرقون. فإذا اتهمناهم بالتجنى حق لهم أن يردوا الاتهام ويقولوا : نحن لم نخترع شيئاً من عندياتنا. أليست القصة واردة فى مصادركم المعتمدة؟.

٧ـ محاولة اقتحام مجالات تدريس العلوم العربية والإسلامية فى الخارج عن طريق الاتفاقات الثقافية التى تعقد بين بلدان العالم الإسلامى ودول أوربا وأمريكا،

وذلك بإرسال أساتذة أكفاء من الأقطار الإسلامية إلى معاقل الاستشراق للتدريس فيها. وبذلك يمكن بالتدريج تصحيح التصورات الأوربية عن الإسلام بالعمل العلمى الدءوب وليس عن طريق الشعارات فقط. وأعتقد أن هناك الآن جامعات فى أوربا وأمريكا لديها الاستعداد للاستجابة لذلك.

وبعد . . .

لقد حاولنا بما عرضناه على مسامعكم فى هذه المحاضرة من نقاط أن نكون منصفين لأنفسنا ولغيرنا، وأن نكون موضوعيين نرى الأسود أسود، والأبيض أبيض، حتى لا تختلط علينا الرؤية فنخطئ الطريق الصحيح إلى فهم أبعاد المشكلة.

وليس ما قلناه عن الإسلام والاستشراق هو نهاية المطاف. وإنما هى مجرد ملاحظات نقصد من ورائها الدعوة إلى التأمل والتفكير فى أبعاد هذه المشكلة المطروحة.

وأرجو أن أكون قد وُفقت إلى الصواب . . والله من وراء القصد، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثاني

دور مؤسسات الدعوة
حيال الغزو الفكري

ويتضمن هذا الفصل :

- تمهيـــــد.
- تحديد المفاهيم.
- مؤسسات الدعوة.
- الغزو الفكري.
- مخاطر الغزو الفكري.
- دور مؤسسات الدعوة:

أولاً : تحصين الجبهة الداخلية.

ثانياً : المواجهة المباشرة.

- خطوات عملية.

obeikandl.com

obeikandl.com

تمهيد :

لم أُكلَّف بكتابة هذا البحث[1] إلا فى نهاية الشهر الماضى، وكان علىَّ أن أكتبه خلال أيام قليلة حتى يمكن لسكرتارية المؤتمر أن تطبعه وتدرجه ضمن البحوث الأخرى. ولعلنى كنت أستطيع أن أستجمع أفكارى حول هذا الموضوع خلال تلك الفترة الزمنية القصيرة، ولكن هناك أموراً علمية أخرى والتزامات كثيرة لا تحتمل التأجيل تتصل بعملى فى إدارة الكلية التى أشرف بعمادتها جعلتنى أتردد فى قبول الكتابة فى هذا الموضوع المهم تحت ضغوط عامل الوقت.

ولكننى ـ من ناحية أخرى ـ أحسست بمسئوليتى نحو هذا العمل الذى يعد نوعاً من الجهاد فى سبيل الله، ولذلك اختلست بعض الوقت فى زحمة أعمالى الأخرى لأكتب هذه السطور التى تعد بمثابة رءوس موضوعات والتى أرجو أن يكون فيها بعض الفائدة، وأن تكون إسهاماً متواضعاً فى أعمال هذا المؤتمر الجليل، وإن كنت أول من يدرك ما فى هذا البحث من قصور وتقصير.

تحديد المفاهيم :

يتحتم علينا فى البداية أن نحدد بعض المفاهيم التى تعد بمثابة المفاتيح لهذا الموضوع. فعنوان البحث المطلوب يحمل بعض المفاهيم مثل « مؤسسات الدعوة » و«الغزو الفكرى» و «الدور» الذى يمكن أن تقوم به هذه المؤسسات حيال هذا الغزو. وهذه أمور تحتاج إلى شىء من التوضيح ـ أو التحديد، بمعنى أصح ـ فخطواتنا فى مجال الدعوة يجب أن تكون محسوبة، ومفاهيمنا يجب أن تكون محددة ودقيقة؛ فنحن اليوم فى عصر لا مجال فيه للارتجال أو التعميمات الغامضة.

---

(١) قدم هذا البحث إلى مؤتمر « دور الجامعات الإسلامية فى تكوين الدعاة » الذى عقد بجامعة الأزهر فى الفترة من ١٨ - ٢٢ أبريل ١٩٨٧م.

مؤسسات الدعوة :

فماذا نعنى عندما نتحدث عن مؤسسات الدعوة ؟

مؤسسات الدعـوة مفهوم واسع يشمل وزارات الأوقاف والمساجد التى تتـبعها وما تقـوم به من دور كبير فى التـوعية الدينية، وتـشمل أيضاً معـاهد التعليم التى تعنى بالتكوين الإسلامى على اختلاف مراحلها ـ وبخـاصة الجامعية منها ـ ويدخل فيه كذلك إدارات الـوعظ والإرشاد واللجان العليا للدعوة، ولجان الشـئون الدينية بالمجـالس النيابيـة والمجلس الأعلى العالمى للمـساجـد والمجلس الأعلى للشـئون الإسلامـية ولجـان الشـئون الدينيـة بالأحزاب المخـتلفة وإدارات تدريب الدعـاة، ووسائل الإعلام الإسلامية مقروءة أو مسـموعة أو مرئية مثل إذاعات القرآن الكريم والصحافة الدينـية سـواء أكانت صحفاً يـومية أو أسبوعـية أو مجـلات أسبوعـية أو شهـرية أو دورية . . . إلخ، كما يدخل تحت مـفهوم مـؤسسات الدعـوة أيضاً المؤسسات الأهلية والجمعيات الدينية التى تعنى بالتوعية الدينية.

ويمكن تجاوزًا أن يدخل تحت هذا المفـهوم أيضاً الجـهود الفردية التطوعـية فى مجال الدعوة إلى الله. ولكن هذه الجهـود الفردية إذا لم تكن مؤهلة للقيام بدورها فى مجال الدعوة فإن خطرها أو ضررها سيكون أكثر من نفعها.

ومن أجل ذلك لا يجوز إغفالها لأنها يمكن أن تثـير الكثير من النزاعات حول أمور شكلية فى الدين فتضر أكثر مما تنفع وتفرِّق بدل أن توحِّد.

وأخطر هذه المؤسسات جميعاً هى المؤسسات التى تتولى التربية والتثقيف ابتداء من المراحل التعليمـية الأولى حتى المراحل النهائية، ويضاهيـها فى الخطر والأهمية وسائل الإعلام؛ لما لها من تأثير لا يقاوم فى صياغة أفكار الناس وتوجيه عقولهم.

ومؤسـسـات الدعـوة هذه تستطيع أن تؤدى أجلَّ خـدمة للإسـلام إذا تعاونت فيمـا بينها وقامت بتنسيق خططـها وتوحيد جهـودها. أما إذا تشاحنت فيـما بينها وتنافرت خططها وتضاربت جهودها فـإن هذا من شأنه أن يعود بالضرر البالغ على الدعوة الإسلامية بصفة عامة. بل وينعكس أثره سلبياً على الإسلام ذاته.

الغـــزو الفكرى :

أما مـفهوم الغزو الفكرى فـإنه مفهـوم قد استقـر فى الأذهان فى معظم بلاد العالم الثالث على الرغم من عدم دقة إطلاقه. فالغزو يعنى الإرغام والقهر. وهذا المعنى غير قـائـم إلا فـى بعض الصـور التى يطلـق عليها مفـهوم الغزو الفكرى. أما بقية صور ما يسمى بالغزو الفكرى فتتم بأيدينا نحن وباختيارنا، وهذا هو وجه الخطورة.

وبصفـة عامة: يمكن القـول بأن مفهوم الغـزو الفكرى يقصد به كل التـيارات الفكرية الهدامة الواردة من الغرب الرأسـمالى أو الشرق الماركسى، سواء تمثلت فى نظريات فلسفية أو اجتماعية أو اقـتصادية أو تربوية أو سياسية أو دينية أو دراسات استشـراقية أو غير ذلك من نـظريات تتصل بحقل الدراسات الإنسـانية على وجه الخصوص.

وقد تكون بعض هذه التـيارات الفكرية قد فُـرضت بالفعل فرضـاً من جانب المستعمر على الشعوب الإسلامية إبان فترة الاحتلال لهذه البلاد مثل فرض النظرية العلمانية بالفصل بين الدين والدولة فى مجال السياسة والاقتصاد وتنظيم المجتمع، وازدواجية التعليم وما إلى ذلك من أمور أريد لنا دون إرادتنا أن نسير فى تيارها.

وقد يكون بعض هذه التيـارات الفكرية قد جُلب إلى بلاد المسلمين على أيدى مسلمين تثـقفوا بالثقافـات الغربية فى الوقت الذى لم يكونوا فيـه على دراية تامة بأمور دينهم العامة أو الخاصة، وقد يكون بعض هذه التيارات قد جُلب على أيدى مواطنين غيـر مسلمين يهمهم بالدرجـة الأولى إضعاف الإسلام وتفـتيت وحدته ـ وقد يكون بعض هذه التيارات الفكرية قـد وجد لنفسه مرتعاً خصبـاً وفرصة مواتية لدى بعض النـفـوس المقلدة للغـرب فـى كل شىء من أبناء المسلمـين تحت تأثيـر مركبـات النقص وعقد التخلف التى تعانى منهـا. ولعل هذا الفريق هو الذى عناه المرحوم مالك بن نبى ـ المفكر الإسلامى الجزائرى ـ حينما تحدث فى بعض مؤلفاته عن أولئك الذين ما زالت لديهم القابلية للاستعمار.

ولا يجوز إغفال الدور الذى تقوم به بعض وسائل الإعلام فى العالم الإسلامى فى نقل الكثير من هذه التيارات الفكرية الهدامة سواء أكان ذلك عن علم ودراية أم عن جهل وغفلة، وسواء أكان ذلك بطريق مباشر أو غير مباشر. فإن ما تنقله وسائل الإعلام هذه مسموعة أو مرئية أو مقروءة يعمل عمله فى صياغة أفكار الشباب والأطفال على وجه الخصوص، بل وفى صياغة أفكار الكهول أيضاً وينعكس أثره سلبياً على سلوكهم وتوجهاتهم.

مخاطر الغزو الفكرى :

بعد هذا التوضيح القصير نعود إلى جوهر الموضوع وهو الدور المنوط بمؤسسات الدعوة حيال الغزو الفكرى. ولكن قبل ذلك علينا أن نسأل :

ما أسباب الخوف من الغزو الفكرى الذى لجأ إليه الاستعمار بعد أن استحال عليه الوجود العسكرى فى البلاد التى كان يحتلها ويسيطر عليها ؟

إن القضية هنا تتصل اتصالاً مباشراً بالضعف الذى يعانى منه العالم الإسلامى كله أو بمعنى آخر : إن الأسباب الحقيقية لهذا الخوف تكمن فى التخلف الذى يخيم على الشعوب الإسلامية.

وهذا التخلف واقع ملموس حتى وإن توارى خلف بعض مظاهر التقدم المادى فى بعض المناطق الإسلامية.

وغنىٌّ عن البيان أن الجسم الضعيف يكون أكثر تعرضاً لخطر الإصابة بالأمراض الفتاكة من الجسم السليم؛ فالأمة الإسلامية لو كانت قوية مرهوبة الجانب ورائدة فى مضمار التقدم والحضارة لما كانت هناك على الإطلاق مشكلة قائمة حول الغزو الفكرى وخطره على الإسلام. فالإسلام فى ذاته قوى فى مبادئه وأصوله وأهدافه وتشريعاته، ولا يُخشى عليه من أية تيارات فكرية مناوئة أياً كان خطرها وأياً كان مصدرها ما دام هذا الدين قد وجد من أتباعه الفهم الصحيح

لأهدافه وغاياته وتشريعاته. ولكن إذا افتقد الإسلام لدى أتباعه ذلك الفهم ؛ لضعفهم وانهيار عزائمهم وانحلال عرى وحدتهم فهنا يكون الخطر كل الخطر الذى يهدد كيانهم كله.

فالقضية ـ إذن ـ تدور حول ما يتعرض له المسلمون ـ نظراً لضعفهم ـ من مخاطر الغزو الفكرى الذى يحاول أن يحتويهم ويستولى على عقولهم ويصوغ لهم أفكارهم ويخطط لهم فى كل مجالات حياتهم حتى ينسوا دينهم الذى يراد إزاحته تماماً من النفوس، أو على الأقل يراد له أن يكون فقط مجرد مظهر خارجى يتمثل فى بعض المظاهر الدينية الشكلية التى لا تعنى شيئاً. فالمستهدف فى النهاية هو الإسلام بوصفه يشكل العقبة الرئيسية أمام القوى الأجنبية التى تحاول السيطرة على المسلمين أو استنزاف خيراتهم.

فما دام القرآن يُتلى بين المسلمين وما دام الإسلام حياً فى نفوسهم فمن المستحيل أن يأمن العدو أو يهدأ له بال أو يقر له قرار. فالإسلام يرفض ولاية الأجنبى على المسلمين وفى الوقت نفسه يغرس العزة فى نفوس المؤمنين.

ومن هنا تحاول شتى التيارات الفكرية الوافدة أن تصفِّى أدمغة المسلمين من المحتوى الحقيقى للإسلام بطريق مباشر أو غير مباشر.

وإن نظرة عابرة على بعض هذه التيارات تريتا بوضوح مدى الجهود التى تُبذل فى سبيل إفراغ الإسلام من مضمونه واختزاله إلى مجرد طقوس شكلية لا روح فيها ولا حياة، أو محاولة طمسه كلية ومحوه من العقول والقلوب.

فالاستشراق مثلاً له أسلوبه فى التشكيك فى الإسلام جملة وتفصيلاً .. جملة بالادعاء بأنه دين مأخوذ من الديانات السابقة عليه ولا جديد فيه، وتفصيلاً بالتشكيك فى القرآن الكريم سواء فى مصدره أو فى نصه، وفى الحديث النبوى وروايته وفى الشريعة الإسلامية وأصالتها، وفى الفلسفة الإسلامية وخصوصيتها، وفى الفكر الإسلامى والتاريخ الإسلامى بصفة عامة، وكذلك تأجيج نار النزاعات والانقسامات بين الفرق الإسلامية وإحياء النزعات القديمة مثل الفرعونية والفينيقية

والفارسية وغيرها من انتماءات قديمة يراد لها أن تغطى على انتماء المسلمين لإسلامهم وتاريخهم وحضارتهم، كما تعمل هذه التيارات على إضعاف اللغة العربية بوصفها لغة القرآن الكريم، وذلك بتشجيع اللهجات العامية المحلية والتعصب لها أو الدعوة إلى كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية، إلى آخر تلك الخطط المشبوهة والمفضوحة.

ومن ناحية أخرى تعمل التيارات المادية الإلحادية ـ من مذاهب وضعية أو ماركسية أو وجودية ـ تعمل على محو الدين تماماً من النفوس وجعل الإنسان عبداً أسيراً لأنانيته وحاجاته المادية، فلا مجال هناك لما يسمى بالروح أو الدين، فذلك أمر يعد فى نظر هؤلاء تخلفاً ورجعية.

وهكذا تأخذ المفاهيم معانى معكوسة. فالمادى الماركسى ـ الذى اتخذ إلهه هواه ـ يصف نفسه بالتقدمية، أما المتدين المتمسك بدينه الملتزم بآدابه فإنه يوصف بالرجعية.

وهكذا تدخل علينا كل هذه التيارات الفكرية الغازية من خلال الضعف الذى يعانى منه المسلمون لا من خلال ضعف الإسلام. ولكن إذا ضعف المسلمون وأصبحوا كالجسد الهزيل الذى لا يقوى على مقاومة ميكروبات الأمراض التى تغزو جسمه فإن الخطر ينتقل بالضرورة إلى الإسلام ذاته.

وهنا تبرز بين المسلمين أنفسهم شتى التفسيرات التى تنحرف بالإسلام عن مقاصده وغاياته، وتتدخل هنا الأهواء والأغراض لتميل بالدين حسبما تشاء، وتظهر النزاعات والانقسامات بين المسلمين من أجل أمور ثانوية. ويساعد العدو بالطبع على إشعال نار هذه الانقسامات بهدف ضياع وحدة المسلمين وتفكيك عرى التماسك بينهم؛ وبذلك يصل إلى ما يريد بأيدينا نحن.

دور مؤسسات الدعوة :

إن الدور الذى يجب على مؤسسات الدعوة أن تنهض للقيام به حيال مخاطر الغزو الفكرى ينبغى أن يسير فى خطين متوازيين ما وقت واحد : أولهما يتمثل فى تحصين الجبهة الداخلية. وثانيهما يتمثل فى الواجهة المباشرة للغزو الفكرى.

وهذا إجمال نفصله فيما يلى :

أولاً : تحصين الجبهة الداخلية :

يقتضى تحصين الجبهة الداخلية استنهاض عزائم المسلمين لنفض غبار التخلف عن كواهلهم وحثهم على المشاركة الإيجابية فى صنع التقدم والحضارة على أرضهم عن طريق العلم والدراسة والفهم، حتى لا يظلوا ـ كما يراد لهم ـ مجرد مستهلكين لمنتجات الغرب. فالأمر المؤسف حقاً أن العالم الإسلامى ـ الذى حباه الله برقعة تحمل فى باطنها كل خيرات الدنيا ـ ما يزال يعتمد فى قوته على الدول الأجنبية بنسبة تزيد على ستين فى المائة. وهذه الدول إذ تورِّد له قُوْتَهُ تورِّد له فى الوقت نفسه أفكارها وقيمها وتقاليدها وطرائق معيشتها. ومعروف أن من لا يملك قوته لا يملك قراره.

ومن أجل ذلك يجب أن تقوم مؤسسات الدعوة بتنشيط الدافع الذاتى لدى المسلمين وإبراز القيم الإسلامية المنسية مثل: قيم العمل والوقت والحق والخير والجمال وترسيخ هذه القيم فى النفوس.

فلن يجدينا فى شىء أن نكتفى بسرد تاريخنا المشرق والتغنى بما كان لنا من أمجاد سابقة، فنحن لن نكون جديرين بالانتساب إلى هؤلاء الأسلاف العظام إلا إذا كنا مثلهم رجالاً نعمل ونبنى الحضارة والتقدم ونتسلح بالعلم والمعرفة وإلا فلا خير فينا.

ويحضرنى فى هذا الصدد ما يروى من أن شكيب أرسلان قد زار جمال الدين

الأفغـانى ذات مرة عندمـا كان شبـه أسير فى عاصمة الخلافة العثمانية وحكى له ما يروى من أن العرب عبروا المحيط الأطلنطى قديماً واكتـشفوا أمريكا قبل اكتشاف الأوربيين لها فيرد عليه جمال الدين قـائلاً : « إن المسلمين أصبحوا كلما قال لهم الإنســان : كونوا بنى آدم، أجابوه : إن آباءنا كانوا كذا وكـذا، وعاشوا فى خيال ما فعل آبـاؤهم، غير مفكرين بأن مـا كان عليه آباؤهم من الرفعـة لا ينفى ما هم عليه من الخمول والضعة.

إن الشـرقيـين كلمـا أرادوا الاعتذار عما هم فـيه من الخمول الحـاضر قالوا : أفلا ترون كيف كـان آباؤنا ؟ نعم قد كان آباؤكم رجالاً، ولكنـكم أنتم أولاء كما أنتم، فلا يليق بكم أن تتذكروا مفاخر آبائكم إلا أن تفعلوا فعلهم »[1].

فـمن الضرورى أن توجـه مـؤسسـات الدعـوة جهـودها ـ كل منهـا بأسلوبه وطريقته الخاصة ـ لإيقاظ الهمم لدى كل فـئات الشعب وحفز العزائم للعمل على انتشال العـالم الإسلامى من الركود الذى يحـيط به ـ وهذا أمر يتطلب وضع خطة للتنمية الدينية والأخلاقية على غرار ما تقوم به الدول من وضع الخطط الاقتصادية والاجتماعية، وذلك من أجل ترسيخ المفاهيم والقيم الإسلامية فى النفوس لتنطلق إلى العمل بهمة ونشاط. فهذه التنمية الدينية والأخلاقية هى الأساس الحقيقى لكل أنواع التنمية الأخرى اقتصادية كانت أم اجتماعية أم تربوية أم سياسية . . . إلخ.

والغـريب أن الدول الإسلامـية تضع باسـتمـرار خططاً للتنمـية الاقـتصـادية والاجتمـاعية دون أن تبذل أى جهد حـقيقى فى سبيل وضع خطة للتنمـية الدينية والأخلاقيـة فى حين أن هذه هى الركيزة الأساسية لـتلك ـ فتربية الضمـيـر وتوعية العقول بقيم الإسـلام وآدابه يدفع العامل إلى العمل بجد وإخلاص مراعيـاً ضميره وربه، فيزيد الإنتاج وتتناقص العقول فى سبيل الخير للمجتمع الإسلامى.

ومن ناحية أخرى فـإن التربية على أساس القيم والمبادئ الإسلاميـة، والتوعية

---

(١) زعماء الإصلاح فى العصر الحديث لأحمد أمين ص ١٠٢ - دار الكتاب العربى - بيروت.

الدينية بأسس الإسلام وغاياته يشكل حصانة قوية ودعامة أساسية تستطيع أن تواجه أية تيارات فكرية أجنبية .

ومن هنا ـ من تقوية الجبهة الداخلية الإسلامية وتوعيتها ـ نحصّن المسلم من الوقوع بسهولة فى حبائل الغزو الفكرى.

ويجب أن يبدأ هذا التحصين من مرحلة الطفولة، وذلك بغرس الانتماء الحقيقى إلى الإسلام فى نفوس النشء وإبراز صور البطولات الإسلامية أمام عينه وقلبه، وصقل مواهبه وتنمية مداركه فى إطار من أخلاق الإسلام وآدابه.

ولا بد أن تتحقق أمامه القدوة الحسنة التى تجعله يتعايش مع الإسلام ممثلاً فى نماذج حية لا فى مجرد التلقين بكلام نظرى؛ فإن من أخطر الأمور فى مجال التربية أن يجد الطفل فى مربِّيه أو فى والديه والمحيطين به ذلك الانفصام الممقوت بين القول والفعل. فإذا نهى المربى عن خلق لا بد أن يكون هو نفسه منهياً عنه، وإلا حق عليه قول القائل :

لا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأتى مِثْلَهُ ... عَارٌ عَلَيْكَ إذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

ابْدَأ بِنَفْسِكَ فَانْهَهَا عَنْ غَيِّهَا ... فَإذا انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمُ

ومن الضرورى أن يستمر التحصين المطلوب فى جميع مراحل التعليم.

ومن هنا تأتى أهمية تدريس الثقافة الإسلامية فى الجامعات الإسلامية حتى لا يترك الطالب فى هذه المرحلة الحاسمة من مراحل حياته نهبًا لشتى التيارات الفكرية دون أن تكون لديه حصانة كافية من دينه وتراثه وقيمه، ودون أن يكون لديه الانتماء الراسخ لعقيدته وتاريخه.

ثانياً : المواجهة المباشرة :

أما عن الجانب الثانى من المهمة الأساسية لمؤسسات الدعوة حيال الغزو الفكرى، والذى سبق أن أشرنا إلى أنه ينبغى أن يسير ـ فى الوقت نفسه ـ مع الجانب الأول، فإنه يتمثل فى المواجهة المباشرة للتيارات الفكرية الغازية، ونعنى

بذلك ضرورة الدراسة الواعية لشتى التيارات الفكرية، وإدراك أسسها وأهدافها ووسائلها حتى يمكن نقضها وتفنيدها وحماية المسلمين من أخطارها. ولنا فى أسلافنا مثل يحتذى، فقد كانت التيارات الفكرية الأجنبية القديمة ـ التى كانت تمثل لوناً من ألوان التحدى للإسلام والفكر الإسلامى الأصيل فى عصور الإسلام الزاهرة ـ كانت حافزاً للمسلمين فى تلك الأيام الخوالى للوقوف أمامها بقوة وصلابة. وقد كانت المواجهة على مستوى التحدى بل تفوقه. فقد هضم الفكر الإسلامى تلك التيارات هضماً دقيقاً واستوعبها استيعاباً تاماً، ثم كانت له معها وقفته الصلبة وبالأسلحة الفكرية نفسها.. فالمواجهة إذاً كانت مواجهة فكرية.

وكأن التاريخ يعيد نفسه، فالحرب الآن بين الإسلام والتيارات المناوئة له حرب أفكار، والمعركة معركة فكرية. ولهذه المعارك أدواتها التى يجب التسلح بها. فالخسران فى هذه المعركة أشد وطأة وأقوى تأثيراً وأعظم فتكاً من خسارة أية معركة حربية أياً كان حجمها [1].

ومواجهة هذه التيارات الفكرية مواجهة حاسمة لا تكون إلا بدراستها دراسة واعية.. « فلا يقف على فساد نوع من العلوم ـ كما يقول الإمام الغزالى ـ من لا يقف على منتهى ذلك العلم حتى يساوى أعلمهم من أهل ذلك العلم، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم ... وإذ ذاك يمكن أن يكون ما يدَّعيه من فساده حقاً » [2].

وقد طبَّق الإمام الغزالى هذه القاعدة على نفسه حين تعرض بالنقض والتفنيد للأفكار الفلسفية اليونانية فى عصره وللأفكار الباطنية وغيرها من تيارات فكرية.

وقد فعل الإمام ابن تيمية الشىء ذاته حين تعرض بالنقض والتفنيد للتيارات الفكرية الأجنبية فى عصره.

---

(١) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى للدكتور محمود حمدى زقزوق ص ١٢٤ (سلسلة كتاب الأمة).

(٢) المنقذ من الضلال للغزالى، تحقيق : الدكتور عبد الحليم محمود ص ١٠٣، القاهرة.

وإذا كان أسلافنا العظام قد فعلوا ذلك منذ قرون فنحن اليوم فى نهاية القرن العشرين أولى بأن نفعل ذلك؛ فعصرنا لم يعد يحترم غير منطق العلم ومخاطبة العقل والإقناع بالحجة والبرهان.

ومن هنا تأتى ضرورة الدراسة الواعية لكل ما يدور فى عالم اليوم من أفكار ونظريات ونقدها فى موضوعية، وعدم اللجوء إلى إلقاء الكلام على عواهنه والإغراق فى التعميمات التى لا تجدى فتيلاً.

وهناك نقطة مهمة وضرورية قبل التوجه بالنقد إلى الآخرين وهى ضرورة ممارسة النقد الذاتى أولاً حتى نعرف مواقع أقدامنا، ونكون على وعى بقصورنا وتقصيرنا فى حق أنفسنا وفى حق ديننا، وأن نقوم بتشخيص عللنا وأمراضنا الاجتماعية والفكرية والسلوكية تشخيصاً حقيقياً حتى يمكننا أن نقوم بعلاجها علاجاً سليماً.

ولا يكفى أن نرفع أصواتنا بين حين وآخر بوضع كل ما نعانيه من علل وأمراض وتخلف وانحدار على شماعة الاستعمار والصهيونية، ونكتفى بذلك وكأننا قد قمنا بحل مشاكلنا، وأدينا واجبنا وعرفنا السبب الحقيقى لكل ما نعانيه من تخلف. إن هذا السلوك هو التخلف بعينه وهو العجز بعينه.

والذى يجب أن ندركه جيداً هو أن التيارات الفكرية الغازية تستمد قوتها من ضعفنا، ووجودها نفسه فى بلادنا وبين ظهرانينا مشروط بعجز العالم الإسلامى عن معرفة ذاته. ويوم أن يعى العالم الإسلامى ذاته وينهض من عجزه ويلقى عن كاهله أثقال التخلف الفكرى والحضارى ـ يومها لن تجد هذه التيارات الفكرية الغازية مجالاً للظهور أو الانتشار بيننا.

وإذا كان علينا أن نضع عن أنفسنا أغلال الوصاية الفكرية فإن علينا من ناحية أخرى أن نتحرر من عقدة التخلف التى تسيطر علينا فى جميع مناحى حياتنا، والتى تسد على الكثيرين منا منافذ الأمل فى الخروج من أزمتنا. فقد تحررنا من الاستعمار العسكرى ولكننا لم نتحرر من القابلية للاستعمار.

ولهذا فإن نظرة الكثيرين منا لكل ما يأتى من الغرب هى نظرة التقدير

والإكبار، حتى وإن كان هذا الذى يرد إلينا متمثلاً فى أزياء غريبة عن أذواقنا وتقاليدنا، أو أشرطة تحمل ألحاناً صاخبة وأصواتاً مزعجة تصرخ بعنف يحطم الأعصاب، ونعدها فناً نتلقفه ونحاكيه لأنه قادم من الغرب المتقدم، غافلين عن الأسباب التى أفرزت فى الغرب مثل هذه الظواهر، وهى أسباب غريبة عنا بكل تأكيد [1].

ويبدو أن « عقدة الخواجة » والتقدير الفائق لقدرات الأجنبى أمر ضارب بأطنابه فى بعض الجوانب من تاريخنا. فقد حكى الجاحظ فى كتاب «البخلاء» الحكاية التالية عن طبيب عربى مسلم هو (أسد بن جانى). يقول الجاحظ: « وكان طبيباً فأكسد مرة. فقال له قائل : السنة وبيئة، والأمراض فاشية، وأنت عالم، ولك صبر وخدمة، ولك بيان ومعرفة. فمن أين تؤتى فى هذا الكساد؟ قال : أما واحدة فإنى عندهم مسلم وقد اعتقد القوم قبل أن أتطبب، لا بل قبل أن أخلق أن المسلمين لا يفلحون فى الطب.

واسمى أسد، وكان ينبغى أن يكون اسمى صليبًا ومراسل ويوحنا وبيرا. وكنيتى أبو الحارث، وكان ينبغى أن تكون : أبو عيسى، وأبو زكريا، وأبو إبراهيم، وعلىً رداء قطن أبيض، وكان ينبغى أن يكون علىً رداء حرير أسود. ولفظى عربى وكان ينبغى أن تكون لغتى لغة أهل جنديسابور » [1].

وكل هذه وغيرها شواهد تؤكد لنا ضرورة التحرر من مركبات النقص وعقد التخلف حتى نكون على ثقة بأنفسنا، والنقد الذاتى من ناحية أخرى كفيل بفتح عيوننا على كل عيوبنا.

وهذه الخطوات تمثل شروطاً ضرورية للدخول فى المواجهة العلمية التى على مؤسسات الدعوة أن تضطلع بها، وبخاصة تلك المؤسسات المعنية بتكوين الدعاة أو التخطيط لتكوينهم. وفيما يلى بعض الأفكار العملية المتواضعة فى مجال المواجهة الفكرية:

---

(١) انظر كتابنا : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى ص ١٢٧ وما بعدها.

خطوات عـــمليـــة :

نظراً لأن المواجهـة اليوم ـ كـما سبق أن أشـرنا ـ هى مواجـهة على المسـتوى الفكرى، ونظراً لأن التيارات الفكرية الوافدة تتخذ لنفسـها صفة العلمية والإنسانية والتقـدمية والحـضارية . . . إلخ، فلا بد لنا من أن ندخـل إلى هذا الميدان ونحن مسلحون بنفس الأسلحـة الفكرية التى تستخدمها هذه التـيارات أو التى تدعى أنها تستخدمها حتى يمكن كـشف زيفها على علم وعن بينة. وهذا يقتضى اتخاذ بعض الخطوات العملية ومنها على سبيل المثال ما يأتى :

١ - إنشاء مركز علمى للدراسات الاستشراقية :

فليس من المعقـول ولا من المقبول أن يكون هناك فى أوربا وأمريكـا ما يقرب من مائة معـهد للاستشراق تقوم كـلها بدراسة عقائدنا وحضـارتنا ولغتنا وتاريخنا كله، ولا يوجد لدينا على امتداد العالم الإسلامى مركز بحوث واحد لدراسة الكم الهائل الذى أنتجته المؤسسة الاستشراقية عن ديننا وحضارتنا.

وحسب بعض الإحـصاءات بلغ عدد المؤلفـات التى أصدرها المستشـرقون عن الشرق منـذ أوائل القرن التاسع عـشر حـتى منتصف القـرن العشريـن ستين ألف كتاب. وفى الكثير منها طعن فى ديننا وتشكيك فى قرآننا وهجوم على نبينا وهدم فى حـضارتـنا وتراثنا كله. ونحن عن هذا كله غـافلون اللهم إلا بـعض الجهـود الفردية هنا وهناك.

ولا يخفى على أحد أن هناك فـريقاً من المثقفين فى العالم الإسلامـى معجبين بالدراسـات الاستشـراقيـة ومنهم من يتقلـدون مناصب الأستـاذية فى الجامـعات الإسلامية، ويقومون ببث أفكارهم بين الطلاب فى قاعات الدراسة.

٢ - مركز علمى لدراسة التيارات المعاصرة :

وإنشاء هذا المركز يعد ضرورة تحتمهـا المصلحة الإسلامية للتعمق فى فهم هذه

التيارات ودراستها ثم إصدار الدراسات الرصينة الواعية التى تأتى على هذه المذاهب من القواعد بأسلوب علمى مقنع يكشف ما فيه من زيف وبطلان، الأمر الذى يحملها على الفرار من الساحة الفكرية فى بلاد المسلمين.

٣- موسوعة إسلامية عالمية :

هناك ضرورة ملحة ليس فقط على مستوى العالم الإسلامى، بل أيضاً على المستوى الفكرى العالمى لإخراج موسوعة إسلامية عالمية باللغة العربية وثلاث لغات أوربية على الأقل تعرض الإسلام عرضاً علمياً وبطريقة موضوعية تنأى عن الخلافات المذهبية الضيقة وترد فى الوقت نفسه على المزاعم التى تثار ضد الإسلام، وتحل هذه الموسوعة محل دائرة المعارف الإسلامية التى أخرجها المستشرقون وما يزالون يقومون بإخراج الطبعة الثانية منها، أو على الأقل تكون بجوار هذه الدائرة، والباحثون لدينا يعتمدون على تلك الدائرة الاستشراقية، وهم معذورون، فكل فراغ فكرى لدينا لا نشغله بأفكار من عندنا يكون عرضة للاستجابة لأفكار منافية، وربما معادية لأفكارنا فلا نلومنَّ حينئذ إلا أنفسنا.

وهذا العمل المطلوب لإخراج موسوعة إسلامية بأقلام المسلمين يقتضى تكوين هيئة علمية عالمية للموسوعة تضم خيرة العلماء من جميع أنحاء العالم الإسلامى تتوفر على إخراج هذا العمل العلمى الضخم من منطلق الانتماء للإسلام وحده والعمل من أجله لا من منطلق انتماءات إقليمية ضيقة. ولا بد من أن تتوفر لهذه الهيئة شتى الإمكانات المادية لتقوم بعملها على خير وجه.

وعلى مؤسسات الدعوة أن تتبنى الدعوة لجمع التبرعات من جميع أنحاء العالم الإسلامى لتمويل هذا العمل الإسلامى وتمويل المركزين البحثيين المشار إليهما قبل ذلك.

فهذه الموسوعة، وكذلك الدراسات التى تصدر عن هذين المركزين ستمد الدعاة برصيد علمى كبير يعينهم على القيام بمهمتهم فى مجال الدعوة الإسلامية على أفضل الوجوه، ويجعلهم قادرين على مواجهة شتى التيارات الفكرية.

٤- جهاز عالمى للدعوة الإسلامية فى الخارج :

وإذا تحدثنا عن مؤسسات الدعوة ودورها حيال الغزو الفكرى فى بلاد المسلمين فلا يجوز أن ننسى أن دور مؤسسات الدعوة يجب أن يمتد ليشمل الأقليات الإسلامية فى كل مكان. فهذه الأقليات تتعرض أكثر من غيرها لمخاطر الغزو الفكرى والمحو المنظم لعقيدتها وذاتيتها وارتباطها بتراثها ولغاتها وتاريخها كله، وبخاصة تلك الأقليات التى تعيش فى البلاد الشيوعية.

وعلى الرغم من وجود الملايين العديدة من المسلمين فى أوربا وأمريكا فإن الأجيال الجديدة من أبناء المسلمين هناك والأجيال القادمة يشبون وهم لا يعرفون من لغاتهم الأصلية شيئاً.

وهؤلاء إذا أرادوا التعرف على إسلامهم لا يجدون أمامهم ـ فى أغلب الأحيان ـ إلا كتب المستشرقين فى كل مكان فيستقون معلوماتهم من هذه الكتب ومعظمها تشكيك فى الإسلام.

ومن ناحية أخرى فإن وجود هذه الملايين من أبناء المسلمين فى البلاد التى تصدر لنا التيارات الفكرية المناوئة لفكرنا وديننا يدعونا لأن نهتم بهم اهتماماً مضاعفاً.

وهذا يتطلب إنشاء جهاز عالمى للدعوة الإسلامية فى الخارج يقوم بالدعوة إلى الإسلام من ناحية ويحمى المسلمين بالوراثة من ناحية ثانية ويرعى المسلمين الجدد من ناحية ثالثة.

ويقتضى ذلك ـ من بين أمور أخرى ـ إصدار سلسلة كتب إسلامية باللغات العالمية لتصحيح التصورات الخاطئة عن الإسلام فى الأذهان وتقديم الحلول الإسلامية لمشكلات المسلمين العصرية وبخاصة مشكلات المسلمين فى بلاد الحضارة الغربية.

كما ينبغى أن يهتم الجهاز المقترح بنشر لغة القرآن بأحدث وسائل التعليم حتى يظل ارتباط المسلم فى هذه البلاد موصولاً دائماً بقرآنه وبسنة نبيه عليه الصلاة والسلام.

وبعـــــد :

فليس هناك شك فى أن تنفيذ مثل هذه المقترحات وغيرها من خطوات عملية فى هذا المضمار سيكون له مردود عظيم على الإسلام والمسلمين فى الداخل والخارج، وسيشد من عزائم الدعاة ويوسع آفاقهم ويجعلهم أكثر قدرة على مواجهة المواقف الفكرية المختلفة فى ثبات وقوة، ويجعل لهم الغلبة والنصر فى المعارك الفكرية أياً كان حجمها وأياً كانت الجهة التى تقف وراءها.

والأمر الجدير بالذكر فى هذا المقام هو أن الإنسان المعاصر فى عالم اليوم قد بدأ يبحث عن الثوابت فى مجال الدين والعقيدة. وإذا قام المسلمون بهذا العمل العلمى الضخم بشتى اللغات الحية فإنهم سيقدمون بذلك أجلّ خدمة للإسلام فى القرن الخامس عشر الهجرى، ويقدمون للإنسان المعاصر ـ المتعطش للمعرفة والباحث عن الحقيقة ـ النور والهداية.

وهناك مؤشرات قوية ـ كما يقول بعض المراقبين المطلعين على التطورات الفكرية فى العالم [1] ـ توحى بأن القرن الحادى والعشرين يمكن أن يشهد تحول نصف سكان الكرة الأرضية إلى الإسلام لما فى هذا الدين من عوامل جذب كثيرة بالنسبة للإنسان المعاصر، شريطة أن ينهض المسلمون بواجبهم العلمى فى عرض دينهم وعقائدهم بالأسلوب الذى يقنع الإنسان المعاصر.

وليس ما نقوله مجرد أمنيات أو أحلام؛ فمن منا كان يتصور قبل الحرب العالمية الثانية أن يكون للإسلام حضور قوى ومؤثر فى بلاد غرب وشمال أوربا؟

ولكن المعجزة قد حدثت، وارتفعت عشرات المآذن وأقيمت مئات المساجد فى بلاد غرب وشمال أوربا، وأصبح للإسلام وجود بالملايين من أبنائه فى كل أنحاء أوربا وأمريكا ، الأمر الذى حدا بالبعض إلى القول بأن الصحوة الإسلامية أو إشراق شمس الإسلام مرة أخرى سيكون من أوربا.

---

(١) د. رشدى فكار ، فى محاضرة له بالمركز العام لجمعيات الشبان المسلمين بالقاهرة فى ٢٩/ ٣/ ١٩٨٧م.

فالإسلام الذى بدأ غـريباً فى مكة ينطلق اليوم مرة أخـرى من بلاد الغربة فى الطرف الآخر من العالم.

وقد نتفـق أو نختلف مع هذا القول، ولكن الأمر الذى لا شك فـيه هو تزايد أعداد المسلمين باستـمرار فى تلك البلاد، الأمر الذى اضطرت معه كـثير من هذه البلاد إلى الاعتراف رسمياً بالإسـلام والاعتراف بكل ما يترتب على هذا الاعتراف من حقوق للمسلمين هناك..

﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (١).

صدق الله العظيم

❖❖❖

(١) سورة يوسف : آية ٢١.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثالث

مستقبل الإسلام
فى الغرب

ويتضمن هذا الفصل :

١- تمهيد : ظاهرة إسلامية جديدة.

٢- الوجود الإسلامى فى الغرب ومشكلاته.

٣- سوء فهم الإسلام فى الغرب وأسبابه.

٤- ركائز المستقبل الإسلامى فى الغرب:

أولا : البعد المتعلق بالعالم الإسلامى.

ثانياً : البعد المتعلق بالمسلمين فى الغرب.

ثالثاً : البعد المتعلق بالعالم الغربى.

obeikandl.com

obeikandl.com

١- تمهيد : ظاهرة إسلامية جديدة :

منذ نهاية الحرب العالمية الثانية برزت إلى الوجود ظاهرة إسلامية جديدة فى العالم الغربى لم تجد حتى الآن ما تستحقه من اهتمام ورعاية من جانب الهيئات الإسلامية، وإن كان العالم الغربى يرصدها بكل دقة.

وتتمثل هذه الظاهرة فى اتساع رقعة المد الإسلامى فى طول البلاد الغربية وعرضها، فقد ازدادت أعداد المسلمين فى أوروبا وأمريكا فى العقود الخمسة المنصرمة زيادة ملحوظة لم تعد تقدَّر بالآلاف أو مئات الآلاف، بل تقدر بالملايين العديدة، وارتفعت المآذن فى كثير من البقاع فى القارتين الأوربية والأمريكية واضطر عدد من بلدان العالم الغربى إلى الاعتراف بالواقع الجديد وذلك بالاعتراف القانونى بالإسلام بما يترتب على ذلك من آثار تتيح للمسلمين إنشاء المدارس والجمعيات الخيرية والمؤسسات الإسلامية المختلفة، الأمر الذى أعطى للمسلمين فى تلك البلاد وزناً خاصاً وأهمية تتلاءم مع أعدادهم المتزايدة.

وهكذا تشاء العناية الإلهية أن تشرق شمس الإسلام فى هذه البلاد التى تأخر دخول الإسلام إليها أربعة عشر قرناً من الزمان . . ولو كانت موازين النصر قد مالت إلى جانب المسلمين فى معركة بواتييه جنوب فرنسا عام ٧٣٢م لعمَّت حضارة الإسلام جميع أنحاء أوربا منذ ذلك التاريخ.

صحيح أن معظم المسلمين فى بلاد الغرب الآن هم من أبناء البلاد العربية والإسلامية الذين هاجروا إلى هناك بعد الحرب العالمية الثانية واستقر بهم المقام فى بلاد المهجر، وذلك بالإضافة إلى من اعتنق الإسلام من أبناء البلاد الأصليين الذين يتزايد عددهم أيضاً باستمرار والحمد لله.

ومع أننا كمسلمين نغتبط لهذا المد الإسلامى المبارك إلا أننا فى الوقت نفسه

لابد لنا من التنبيه إلى خطر مستقبلى يتمثل فى القلق على مستقبل الأجيال القادمة من أبناء المسلمين فى بلاد الغرب. فقد كان الجيل الأول الذى استقر هناك يعرف لغته الأصلية وكانت لدية خلفية ثقافية إسلامية تحميه من خطر الذوبان فى المجتمع الجديد.

لكن الأجيال التالية لهذا الجيل ـ والتى نسى كثير من أبنائها لغته الأصلية ـ لم تجد من يحصنها بدرجة كافية بالثقافة الإسلامية ضد خطر ضياع الهوية الثقافية والذاتية الإسلامية.

مسئولية إنقاذ هذه الأجيال واستثمار المد الإسلامى الجديد فى الغرب يقع على عاتق الأمة الإسلامية والمؤسسات المعنية بشئون الدعوة الإسلامية فى العالم الإسلامى. فهذه الأجيال المسلمة فى تلك البلاد فى أشد الحاجة إلى أن نمد لها يد العون ونساعدها فى إقامة مؤسسات علمية وتعليمية وأنشطة ثقافية تقوم بالتوعية المستمرة بمختلف الوسائل وربط هذه الأجيال بالأمة الإسلامية وفتح عيونها على ما يتهدد ذاتيتها من أخطار.

ومن جانب آخر علينا أن نعمل جاهدين على محاولة تصحيح الصورة المشوهة للإسلام فى أذهان الغرب.. فهذا التصحيح يعد فى الوقت نفسه مساعدة قيمة لأبناء المسلمين فى بلاد المهجر حيث يشد أزرهم ويقوى جانبهم ويزيدهم ثقة واعتزازاً بدينهم وحضارتهم، والأسلوب العلمى فى هذا الصدد هو أنسب الوسائل لمواجهة تيار العداء السافر والمستتر للإسلام والمتأصل فى الثقافة الغربية منذ قرون عديدة.

وهذا إجمال يحتاج إلى شىء من التفصيل نوضح فيه مشكلات الوجود الإسلامى فى الغرب، وظاهرة سوء فهم الإسلام فى المجتمعات الغربية ثم ننتقل بعد ذلك إلى بيان الأبعاد الأساسية التى تحدد مستقبل الإسلام فى الغرب.

٢- الوجود الإسلامى فى الغرب ومشكلاته :

إن الدول الغربية لم تفكر فى بداية الأمر فى قضية الوجود الإسلامى فى الغرب. فقد كانت هذه البلاد - بعد الحرب العالمية الثانية - فى أشد الحاجة إلى الأيدى العاملة لتبنى نفسها بعد الدمار الذى خلفته الحرب.

ومن هنا كانت قضية إعادة البناء هى الشغل الشاغل للدول الأوربية - وبوجه خاص، لكل من انجلترا وفرنسا وألمانيا - ولم يكن يدور فى الأذهان أن المهاجرين إلى الغرب - من أبناء الأمة الإسلامية والعربية - سيستقرون فى البلاد التى هاجروا إليها. فالمفروض أن إقامتهم كانت مؤقتة، وكما يقول أحد القساوسة الألمان :

« لقد كان ينبغى عليهم فى واقع الأمر أن يعتبروا أنفسهم ضيوفاً مؤقتين وأن يتصرفوا على هذا الأساس، وأن يعودوا بعد ذلك إلى أوطانهم وهم محتفظون بآرائهم التى يعتنقونها »[١].

ولكن المهاجرين قد استقر بهم المقام فى بلاد الغرب، وعندئذ بدأ المجتمع الغربى يدرك مدى الكم الهائل من المشكلات التى ترتبت على ذلك ومنها على سبيل المثال لا الحصر : قضايا الحفاظ على الهوية الإسلامية، وتعليم الدين الإسلامى، ومشاكل التكيف مع الحضارة الغربية، والاندماج فى مجتمع مسيحى علمانى، والاغتراب المكانى والروحى، الأمر الذى جعل المسلمين فى كثير من البلاد الغربية يعيشون فى ظل ظروف تتمثل فى انتزاعهم من جذورهم، وفى الإحساس بالظلم والاستغلال الاجتماعى والتفرقة فى المعاملة بطريقة خفية أو مكشوفة[٢]، وسوء ظن الغربيين تجاه المسلمين الذين يعايشونهم لدرجة أن أحد

---

(١) انظر بحثاً لنا بعنوان : «الإسلام ومشكلات المسلمين فى ألمانيا» ص ٣٠- مكتبة وهبة بالقاهرة ١٩٨١م.

(٢) راجع على سبيل المثال : التمييز فى الأجور والوظائف وآفاق المستقبل للشباب المسلم فى كندا - لداود حسن حمدان - ضمن كتاب الأقليات المسلمة فى العالم ص ١١٨٥ وما بعدها (المجلد الثالث) الرياض ١٩٨٦م.

علماء الطبيعة الألمان ـ الذى كان من المعارضين لإنشاء مركز إسلامى فى العاصمة الألمانية بون ـ عبَّر عن مقدار سوء الظن بالمسلمين قائلاً إنه أحب لديه أن يبنى «مفاعل ذرى» أمام باب منزله من أن يُبنى مركز إسلامى معللاً ذلك بأن المفاعل الذرى يمكن أن يحسب حسابه، أما المسلمون فلا يستطيع المرء أن يتنبأ بالأخطار التى ترد من جانبهم [1].

وقد أصبح وجود تلميذة مسلمة تغطى رأسها فى مدارس الغرب أمراً يشغل الرأى العام الغربى كله بوصف ذلك أمراً يتعارض مع التقاليد والحضارة الغربية، ولأنه فى الوقت نفسه يذكِّر الناس هناك بالإسلام. وهذا فى حد ذاته أمر غير مرغوب فيه.

والأمر الذى لا شك فيه هو أن الوجود الإسلامى فى الغرب يتعرض لتحديات خطيرة تهدد كيانه، وهى تحديات تفرضها البيئة المحيطة بأبناء المسلمين فى الغرب دينياً وأخلاقياً واجتماعياً. فكل سلبيات المجتمع الغربى ينعكس أثرها السلبى على الشباب المسلم فى الغرب سواء فى مجال التحلل من الدين أو القيم أو السلوك.

فالحياة الاجتماعية فى الغرب تثير الشكوك فى عقول الشباب حول كثير من الأمور المتعلقة بالعقيدة والحياة الإسلامية.

وفى هذا الصدد لا بد من الإشارة إلى جهود المبشرين التى تهدف إلى إبعاد المسلمين عن إسلامهم. وإذا لم تنجح جهودهم فى تنصيرهم فعلى الأقل تشكيكهم فى دينهم.

وهكذا يواجه المسلمون فى الغرب مشكلات دينية ونفسية واجتماعية وحضارية وسلوكية.

وينتهز أعداء الإسلام فى الغرب حقيقة ضعف المسلمين فى العالم الإسلامى وتخلفهم بإرجاع ذلك التخلف إلى الإسلام ذاته، وفى المقابل إرجاع تقدم

---

(١) الإسلام ومشكلات المسلمين فى ألمانيا ص ٨.

المجتمعات المسيحية إلى المسيحية ذاتها، فى حين أن الإسلام ـ كدين ـ لا صلة له بتخلف المسلمين، كما أن المسيحية ـ كدين ـ لا صلة لها بتقدم المجتمعات الغربية.

ورحم الله مالك بن نبى الذى كان يقول : « إن التخلف الذى يعانى منه العالم الإسلامى ليس سببه تمسك المسلمين بالإسلام وإنما هو عقوبة مستحقة من الإسلام على المسلمين لتخليهم عنه لا لتمسكهم به كما يظن بعض الجاهلين».

ويريد الساسة الغربيون أن يتكيف الإسلام فى الغرب مع التقاليد الغربية. ولذلك وجدنا وزير الداخلية الفرنسى الذى رفض أن تمنح فرنسا تأشيرات دخول للقراء والوعاظ المصريين فى شهر رمضان من عام (١٤١٣هـ) ـ كما كان ذلك سائداً فى الأعوام الماضية ـ يبرر هذا الرفض بأن فرنسا تريد «تنمية الإسلام فى فرنسا على الطريقة الفرنسية».

وقد أصبح الوجود الإسلامى فى الغرب يتعرض اليوم لأبشع الحملات الإعلامية وموجات الكراهية والتخويف من جانب الجماعات المتطرفة من النازيين الجدد فى ألمانيا واليمينيين المتطرفين فى فرنسا وغيرهما من جماعات متطرفة فى بلاد غربية أخرى. وهى حملات ليست موجهة ضد المسلمين كأشخاص فحسب، بل ضد الإسلام بوصفه ديناً غير مرغوب فيه.

وما احتضان الغرب لسلمان رشدى والدفاع عنه إلا حلقة من حلقات هذا المخطط الإعلامى ضد الإسلام، ولكن لماذا يتعرض الإسلام وحده من بين كل الأديان فى العالم لهذه المعاملة الظالمة ؟

٣- سوء فهم الإسلام فى الغرب وأسبابه :

إن سوء فهم الإسلام فى الغرب بصفة عامة يرجع أساساً إلى تشويه متعمد للإسلام منذ قرون طويلة. فالحملات الضارية ضد الإسلام اليوم ليست وليدة ظروف جديدة طارئة، وإنما هى نتيجة ترسبات قديمة ترسخت فى العقلية الغربية

منذ الحروب الصليبية، بل حتى قبل الحروب الصليبية حينما فتح المسلمون الأندلس، وحينما فتح العثمانيون ـ فيما بعد ـ القسطنطينية وحاصروا العاصمة النمساوية فيينا.

وقد شهدت العصور الوسطى فى أوربا الكثير من الافتراءات ضد الإسلام والمسلمين، وراح اللاهوتيون النصارى فى ذلك الوقت المبكر ينشرون الافتراءات والأكاذيب حول الإسلام ونبيه ﷺ.

وهناك فى هذا الصدد الكثير من الأساطير فى وصف الإسلام، وهى أساطير مغرقة فى الخيال وفى الضلال اخترعها الكتاب فى ذلك العصر مثل أنشودة رولاند الشهيرة وغيرها من آثار أدبية تصف المسلمين بأنهم عباد أصنام[1] وتدمغهم بأحط الأوصاف. ولم ينج من نشر مثل هذا الضلال أعلام الأدباء فى الغرب مثل دانتى وفولتير وغيرهما. وقد ترسخ فى العقلية الغربية أن الإسلام دين عدوانى متعصب شهوانى تواكلى . . . إلخ، وما تزال حتى يومنا هذا تدرس للأطفال فى المدارس الغربية معلومات خاطئة عن الإسلام والمسلمين [2].

ومن هنا لا نعجب إذا وجدنا الحملات الإعلامية ضد الإسلام والمسلمين فى الغرب تنشط بين الحين والحين. فهى حملات تعبر عن مدى سوء فهم الغربيين للإسلام، ومدى تأصل ما ورثوه فى هذا الصدد من أوهام ترسخت فى أذهانهم.

ويعجب المرء عندما يجد أن الأديان الأخرى وبخاصة الأديان البشرية تعامل من جانب الغرب معاملة منصفة . . والإسلام وحده من بين كل الديانات فى العالم هو الذى يُهاجَم ويُسَاء إليه، وهو وحده الذى يُرمَى بكل النقائص.

---

(١) انظر كتابنا : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى ص ٢٩ وما بعدها ـ دار المنار بالقاهرة ١٩٨٩م، وكذلك : نظرة الغرب إلى الإسلام فى القرون الوسطى، لساذرن ـ ترجمة على فهمى خشيم ـ دار الفكر بطرابلس ـ ليبيا ١٩٧٥م.

(٢) يراجع فى هذا الصدد جهود ومنشورات الأكاديمية العلمية الإسلامية فى كولونيا بألمانيا. فقد قامت هذه الأكاديمية بإجراء دراسات حول المعلومات التى تشتمل عليها الكتب المدرسية عن الإسلام فى دول القارة الأوربية.

وترتعد فرائص الغربيين حينما يسمعون عما يسمى بالصحوة الإسلامية فى بعض البلاد الإسلامية، وينظر الغرب اليوم إلى الإسلام على أنه هو العدو البديل بعد انهيار العدو التقليدى المتمثل فى الشيوعية .. ولم يخف المسئولون فى الغرب ذلك، بل أعلنه العديد منهم فى صراحة ووضوح .

ويتضح موقف الغرب من المسلمين فى وقوفه موقف المتفرج لأكثر من عامين من مأساة البوسنة والهرسك فقد أعلن الصرب فى وضوح أنهم يقومون بمهمة تاريخية وهى حماية أوربا من الإسلام، وأن أوربا إذا قالت شيئاً غير ذلك فهذا من قبيل النفاق. وقد ظلت أوربا بالفعل تنافق طوال هذه المدة وتكتفى بإصدار بيانات الشجب والاستنكار إلى أن يحقق الصرب أهدافهم. ويريد الصرب أن يكرروا فى البوسنة والهرسك ما فعله الإسبان قبل خمسمائة عام من طرد المسلمين من الأندلس والفتك بهم. ولو نجح الصرب فى ذلك سيأتى الدور على بقية المسلمين فى بلاد غربية أخرى.

٤ـ ركائز المستقبل الإسلامى فى الغرب :

إن مستقبل الإسلام فى الغرب يتوقف بصفة أساسية على عدة عوامل : أولها يتعلق بالعالم الإسلامى، وثانيها يتعلق بالمسلمين الذين يعيشون فى الغرب، وثالثها يتعلق بالموقف الغربى نفسه.

فهناك ـ إذن ـ أبعاد ثلاثة: بعد على مستوى العالم الإسلامى، وبعد على مستوى المسلمين فى الغرب، وبعد غربى.

وهذه العوامل أو الأبعاد الثلاثة غير منفصلة عن بعضها، بل هى متداخلة ومتشابكة؛ ومن هنا فلا يجوز بحث مستقبل الإسلام فى الغرب دون النظر إليها من خلال هذا التداخل؛ نظراً لأن كل عامل منها له تأثير متبادل مع العوامل الأخرى. وفيما يلى نعرض وجهة نظرنا فى هذا الصدد :

أولاً : البعد المتعلق بالعالم الإسلامى :

أما البعد الأول وهو البعد الذى يتعلق بالعالم الإسلامى فإننا نود فى البداية أن نؤكد على حقيقة ثابتة فى أن مستقبل الإسلام فى الغرب يتوقف بالدرجة الأولى على مستقبل الإسلام فى العالم الإسلامى. فالمسلمون أمة واحدة، كما أراد الله لها أن تكون ﴿ **إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً** ﴾[1] ومن هنا فإن عزة الإسلام وقوة المسلمين فى العالم الإسلامى وازدياد تأثيرهم فى مجال السياسة العالمية من شأنه أن يدعم الأقليات الإسلامية فى الغرب ويرفع من معنوياتها، ويزيدها التصاقاً بدينها وتراثها وحضارتها، ويعطيها الأمل فى مستقبل مشرق . .

ومن هنا تأتى ضرورة استمرار ربط الجسور مع المسلمين فى الغرب، ومعاونتهم فى تصحيح صورة الإسلام فى أذهان الغربيين بكل الوسائل العلمية والعملية التى تعرض الإسلام عرضاً سليماً يصحح المفاهيم المغلوطة ويزيل الشبهات ويبدد الأوهام ويقضى على الأباطيل المنتشرة بين الغربيين سواء فى وسائل الإعلام أو فى بحوث المستشرقين أو فى المناهج الدراسية. وهذا كله من شأنه أن يحمى أبناء المسلمين فى الغرب من أخطار التنصير وألاعيب الملاحدة.

وفى هذا الصدد نقترح الوسائل التالية :

١ـ إصدار دائرة معارف إسلامية باللغة العربية واللغات الأجنبية تعرض الإسلام عرضاً علمياً وبطريقة موضوعية تنأى عن الخلافات المذهبية الضيقة، وترد فى الوقت نفسه على المزاعم التى تثار ضد الإسلام، وتحل هذه الموسوعة - بالنسبة للمسلمين فى الغرب ـ محل دائرة المعارف الإسلامية التى أخرجها المستشرقون وما يزالون يقومونِ بإخراج الطبعة الثانية منها، كما تكون هذه الموسوعة أيضاً بجوار موسوعة المستشرقين بالنسبة لغير المسلمين ممن يريدون أن يتعرفوا على وجهات النظر الإسلامية من مصادرها الأصلية.

فالباحثون لدينا فى العالم الإسلامى وفى العالم الغربى أيضاً يعتمدون على

---

(١) سورة الأنبياء : آية ٩٢.

دائرة المعارف الاستشراقية ولعلهم معذورون فى ذلك نظراً لعدم وجود البديل؛ فكل فراغ فكرى لدينا لا نشغله بأفكار من عندنا يكون عرضة للاستجابة لأفكار منافية ـ وربما معادية ـ لأفكارنا، فلا نلومنَّ حينئذ إلا أنفسنا.

٢ـ إصدار موسوعة فقهية مختصرة باللغات الأجنبية تشتمل على كل ما يهم المسلم معرفته فى حياته التمهيدية والعملية.

٣ـ إصدار موسوعة حديثة مختصرة ومبوبة باللغات الأجنبية تشتمل أيضاً على كل ما يهم المسلم معرفته من أمور دينه.

٤ـ إصدار ترجمة معتمدة لمعانى القرآن الكريم بعدد من اللغات الأجنبية لخدمة المسلمين فى الغرب وخدمة الراغبين فى الاطلاع على الإسلام من غير المسلمين [١].

٥ـ مد المسلمين فى الغرب بالعلماء المستنيرين الفاهمين لحقائق الدين والدنيا، وتزويدهم بالمراجع الإسلامية الأصيلة والبرامج الدينية الهادفة التى تستفيد فى نشر الدعوة الإسلامية من كل منجزات العصر من إذاعة وتليفزيون وسينما وفيديو وكومبيوتر. وفى هذا الصدد ينبغى التفكير فى إنشاء قناة تليفزيونية إسلامية لخدمة أبناء المسلمين فى الغرب.

٦ـ إصدار سلسلة من الكتيبات باللغات الأجنبية تعالج العديد من القضايا المثارة على الساحة الفكرية والدينية من منظور إسلامى، وتعرف المسلمين بتاريخهم وحضارتهم، وما قدمته هذه الحضارة من علوم ومعارف وإنجازات رائعة كانت فاتحة خير للبشرية جمعاء.

٧ـ مساعدة المسلمين فى الغرب على اغتنام الفرص المتاحة ـ حسبما تسمح بذلك قوانين البلاد التى تعيش فيها جاليات إسلامية كبيرة ـ لإنشاء نظام تعليمى

---

(١) راجع كتابنا : قضايا فكرية واجتماعية فى ضوء الإسلام ص ٢٢٠ ، ٢٢٩ وما بعدها ، دار المنار بالقاهرة ١٩٨٨م.

إسلامى يبدأ من رياض الأطفال وينتهى بالجامعة ويعتمد هذا النظام على الجمع بين الدراسات المدنية المتعددة بالإضافة إلى برنامج إسلامى متكامل ـ ويندرج ذلك كله فى إطار فلسفة واضحة المعالم محددة الأهداف تنطلق من المفهوم الإسلامى للعلم الشامل لعلوم الدين والدنيا معاً.

ومن الطبيعى أن يقوم هذا النظام التعليمى الإسلامى بالتنسيق مع المؤسسات التعليمية فى الدول المضيفة حتى يمكن الاعتراف بالشهادات التى تمنحها المؤسسات التعليمية الإسلامية.

وهناك بالإضافة إلى هذه المساعدات العلمية الإسلامية ـ التى هى ضرورية بالنسبة للمسلمين فى الغرب ـ أمور أخرى ينبغى أن يضعها العالم الإسلامى فى اعتباره لما لها من أهمية بالغة فى مساعدة المسلمين فى الغرب، ومن ذلك على سبيل المثال :

(أ) جعل قضية الأقليات الإسلامية فى الغرب ضمن قائمة الأمور التى تكون موضوع مباحثات بين الجانب الإسلامى والجانب الغربى، مثلما يفعل الغرب ذلك ويضع فى رأس قائمة موضوعاته الاهتمام بالأقليات المسيحية فى العالم الإسلامى.

(ب) التركيز من جانب العالم الإسلامى على العناصر الإيجابية فى العلاقات التاريخية مع الغرب على المستوى الحضارى وعلى ما قدمته الحضارة الإسلامية من إنجازات باهرة كانت حافزاً للغرب على شق طريقه نحو التقدم والازدهار، وكذلك التركيز على موقف الإسلام التاريخى المتسامح مع المسيحية ومع كل الديانات السماوية.

(ج) إن التزام الدول الإسلامية بمبادئ الإسلام الحقيقية قولاً وعملاً من حيث احترام حقوق الإنسان وكرامته وآدميته من شأنه أن يحسن صورة الإسلام فى العالم ويبطل مزاعم الغرب ضد الإسلام. وهذا كله ينعكس أثره إيجابياً على المسلمين الذين يعيشون فى الغرب.

وحتى يمكن تحقيق هذه البرامج وغيرها من أمور أخرى يحتاجها المسلمون فى الغرب لا بد من إنشاء مؤسسة إسلامية متخصصة لرعاية الأقليات المسلمة فى العالم، ولا يكفى أن يكون بند الأقليات الإسلامية أحد بنود العديد من المنظمات الإسلامية التى ليس بينها فى الغالب أى تنسيق.

فالمطلوب هو مؤسسة متفرغة لهذا العمل بتمويل إسلامى تكون هى حلقة الوصل بين العالم الإسلامى والأقليات المسلمة فى العالم، وتكون مهمتها القيام بإعداد الدراسات اللازمة ووضع الخطط والبرامج ومتابعة التنفيذ.

وهذا الاقتراح وثيق الصلة بإحدى التوصيات العامة التى أصدرها المؤتمر العالمى السادس للندوة العالمية للشباب الإسلامى الذى انعقد فى الرياض عام ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م. فقد أوصى هذا المؤتمر حكومات الدول الإسلامية والهيئات والمنظمات المعنية بإنشاء صندوق يسمى " صندوق الأقليات الإسلامية ".

ثانياً : البعد المتعلق بالمسلمين فى الغرب :

أما البعد الثانى الذى يتصل بالمسلمين الذين يعيشون فى الغرب فإن عليهم مسئولية كبيرة فى مساعدة أنفسهم، ليس فقط من أجل ضمان استمرار وجودهم فى الغرب، بل أيضاً من أجل دعم هذا الوجود وازدهاره والتطلع إلى غد أكثر إشراقاً.

وأود فى هذا الصدد أن أعرض بعض التصورات التى أعتقد أن لها أهميتها القصوى فى مستقبل الإسلام فى الغرب:

١- ضرورة اتحاد المجموعات الإسلامية فى الدول الغربية وتوثيق الروابط فيما بينها والبعد عن الصراعات المذهبية الضيقة والتيارات السياسية التى من شأنها أن تقوض أواصر المودة بين المسلمين فى الغرب.

فمن غير المعقول أن تنقل التجمعات الإسلامية معها إلى الغرب الصراعات السياسية والأيديولوجية والمذهبيات الضيقة السائدة فى البلاد التى أتت منها، وتنسى - فى غمار ذلك - مشاكلها الحقيقية التى ينبغى أن تهتم بها.

وما زلت أذكر ما دار من مناقشات فى أحد المراكز الإسلامية فى أوربا عند زيارتى لهذا المركز عام ١٩٨٠م. فقد دارت المناقشات كلها من خلال منطلقات سياسية وأيديولوچيات يؤمن بها هذا الفريق أو ذاك، وهذا كله يعد من قبيل الهزل فى وقت الجد، وفيه إضاعة للجهد والوقت وتمزيق للروابط واستنفاد للطاقة. فماذا يبقى هناك من طاقة لحل المشكلات فى بلاد المهجر؟

إن مما لا شك فيه أن هناك تحديات خطيرة تواجه المسلمين فى الغرب. والوعى بالمشكلات الحقيقية التى تواجههم ووضعها فى إطارها الصحيح ومراعاة الأولويات فى هذا الصدد هو البداية الصحيحة فى سبيل البحث عن حلول لهذه المشكلات.

٢ـ ضرورة فهم العقلية الغربية والتعامل معها من هذا المنطلق؛ فلا يعقل أن يعيش المسلم فى الغرب وهو يجهل العقلية الغربية وأنماط السلوك الغربى. فالله قد خلقنا مختلفين لنتعارف ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا** ﴾ (١).

وهذا التعارف هو الخطوة الأولى للفهم المتبادل والاحترام المتبادل والتعاون المشترك. وبذلك يمكن القضاء على أسباب الصراع وانعدام الثقة والأحكام المسبقة على كلا الجانبين.

٣ـ على المسلمين فى الغرب أن يقدموا للآخرين صورة مشرقة عن الإسلام وذلك بتقديم النموذج الإسلامى الحى المجسِّد لتعاليم الإسلام عملاً لا قولاً فقط، وجوهراً لا شكلاً فحسب.

ويتمثل ذلك فى السلوك الإسلامى الملموس الذى يجذب ولا ينفِّر، فهذا السلوك على المستوى الفردى والجماعى له أثره البالغ لا فى تعديل صورة الغرب عن الإسلام فحسب، بل لجذب الغربيين للإسلام أيضاً.

وليس هناك معنى لأن نركز فى الغرب على المظاهر الشكلية على حساب

---

(١) سورة الحجرات: آية ١٣.

الجوهر؛ فالإسلام ليس مجرد مظاهر ورسوم ولكنه عقيدة تمتلئ بها جوانب النفس فتضيء إشراقاً ومحبة للجميع.

وقد روى لى أحد الأساتذة المسلمين فى إحدى الجامعات الألمانية أن شاباً ألمانياً مسلماً يدرس مع أقرانه دراسات إسلامية فى أحد معاهد الاستشراق. وبصرف النظر عن المظهر الغريب لهذا الشاب، والذى هو ـ فى حد ذاته ـ منفِّر بالنسبة للآخرين ، فإنه دخل فى إحدى المرات إلى المعهد الذى يدرس فيه فوجد زملاءه ـ وهم مسيحيون ـ يقرأون فى المصحف بعض آيات القرآن الكريم تتصل بما يدرسونه. فما كان منه إلا أن نهرهم بغلظة وانتزع المصحف من بين أيديهم، ونهاهم عن لمسه لأنهم كافرون.

فهل مثل هذا السلوك هو الأسلوب السليم لجذب الآخرين إلى الإسلام أو ـ على الأقل ـ لإعطائهم صورة مشرقة للسلوك الإسلامى ؟

٤ـ إقامة الندوات العلمية المشتركة مع العناصر الغربية المستعدة للتفاهم، والمحبة للتعايش فى سلام وأمن واستقرار مع المسلمين، وفتح حوار إيجابى معها يركز على العناصر الإيجابية المشتركة وينحّى ـ جانباً ـ كل ما من شأنه أن يعكر صفو العلاقات بين الجانبين.

وبهذه الطريقة يكسب المسلمون فى الغرب أصدقاء يمكن أن يكون لهم أثر فى خدمة الوجود الإسلامى فى الغرب.

٥ـ إيجاد الصيغة المناسبة للحفاظ على الذاتية الإسلامية للمسلمين فى الغرب ـ من جانب ـ والمشاركة الفعالة فى أنشطة المجتمعات الغربية ـ من جانب آخر.

فالمسلمون فى الغرب لا يجوز لهم أن ينعزلوا فى حارات مثل حارات اليهود، ولكنهم ـ من ناحية أخرى ـ لا يجوز لهم أن يذوبوا فى المجتمع الغربى، بمعنى أن يفقدوا هويتهم الدينية والثقافية.

ولا ننسى أن هناك أخطارًا حقيقية فى هذا الصدد تهدد الأجيال الجديدة من أبناء المسلمين فى الغرب.

ومن هنا فإنه من الضروري أن تحصِّن الأسر المسلمة أبناءها بالثقافة الإسلامية الرشيدة، مثلما نحصِّن الأطفال عن طريق الأمصال المناسبة ضد الأمراض المختلفة. وهذا يحتم إقامة مؤسسات ثقافية إسلامية في بلاد الغرب للمساعدة على تحقيق هذا الهدف.

وتتمثل هذه المؤسسات الثقافية في مؤسسات إسلامية للتثقيف العام تكون ـ من ناحية ـ فرصة لالتقاء أبناء الجاليات الإسلامية في الغرب، ومن ناحية ثانية: تعمل على تأكيد الانتماء الإسلامي ودعمه لدى أبناء هذه الجاليات، ومن ناحية ثالثة: تعمل على استكمال النقص في برامج التعليم العام في هذه البلاد؛ حيث لا تكون هناك في الغالب برامج للتربية الإسلامية، أو إذا كان هناك شيء من هذا القبيل يكون هامشياً ولا يفي بالغرض.

وتسير هذه المؤسسات الثقافية ـ جنباً إلى جنب ـ مع المراكز الإسلامية القائمة ومع الاهتمام بإنشاء مدارس إسلامية ما دامت قوانين البلاد تسمح بذلك.

٦ـ ضرورة فهم حقائق الواقع وحسن التعامل مع هذا الواقع. لقد قرأت في صحيفة إسلامية تصدر في إحدى الدول العربية أن حزباً إسلامياً قد تم تشكيله في دولة أوربية وأنه أعلن أنه يريد تطبيق الشريعة الإسلامية في هذا البلد.. فهل هذا كلام معقول؟ . .

إن هذا يعني عدم فهم للواقع الغربي من ناحية، ومن ناحية أخرى يعطي للآخرين الفرصة لتأليب الرأي العام ضد المسلمين في الغرب؛ وهنا تظهر تُهم الأصولية والعنف والعدوانية والتعصب . . . إلخ.

ومن جهة ثالثة نسأل : هل تم التطبيق في العالم الإسلامي حتى نطالب به هنا في الغرب ؟

إن المؤمن كيِّس فطن وعليه أن يبتعد عن الأسلوب الساذج في التعامل مع حقائق الحياة.

ثالثاً : البعد المتعلق بالغرب :

أما البعد الخاص بالغرب، فإنه يتوقف على البعدين السابقين؛ فالمبادرة بالنسبة لدعم مستقبل الإسلام فى الغرب لن تأتى من الغرب ذاته، ولكنها لا بد أن تأتى من الجانب الإسلامى.

وإذا أردنا أن نلخص أهم النقاط فى الموقف الغربى إزاء الإسلام والمسلمين الذين يعيشون فى الغرب فإننا نحددها فى التساؤلات التالية:

١ـ ما مدى تقبل المجتمعات الغربية للوجود الإسلامى ؟

٢ـ ما مدى جدية المجتمعات الغربية فى مكافحة العنصرية المعادية للأجانب بصفة عامة وللإسلام والمسلمين بصفة خاصة؟

٣ـ ما مدى استعداد الغرب للتعامل مع الإسلام بموضوعية وإنصاف فى وسائل الإعلام كما يفعل مع الديانات الأخرى ؟

٤ـ ما مدى استعداد الغرب لتصحيح الأخطاء فى المعلومات المدرسية عن الإسلام؛ حتى لا تنشأ الأجيال الغربية الجديدة وهى تسير فى نفس خط المعاداة للإسلام والمسلمين؟

إن من الواضح أن تعديل المواقف والتصورات الغربية والإجابة عن هذه التساؤلات يتوقف على مدى تعاملنا الإيجابى مع البعدين السابقين.

وهذا يضاعف من مسئوليتنا على مستوى العالم الإسلامى ـ من جهة ـ وعلى مستوى الأقليات المسلمة فى الغرب ـ من جهة أخرى.

ونخلص من ذلك كله بأن مفتاح حل مشكلات الوجود الإسلامى فى الغرب فى أيدى المسلمين أنفسهم، وليس فى يد غيرهم. فإذا لم نساعد أنفسنا فلن يساعدنا أحد، كما أن الله سبحانه وتعالى لن يساعدنا أيضاً إلا إذا ساعدنا أنفسنا.. وهذا قانون قرآنى ثابت:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[1] .

فهل نحن على استعداد لتحمل مسئولياتنا إزاء الأجيال القادمة فى الغرب؟

إذا كنا على استعداد لذلك فإن الأمر يقتضى تحديد الأهداف ووضع البرامج العلمية والعملية، واتخاذ الوسائل الكفيلة بتحقيق هذه البرامج.

ولعل فى بعض التصورات التى قدمتها - وهى غير مجهولة لديكم - ما يفيد فى مجال البحث فى هذا الصدد، ولعلى قصدت بها أن نثرى النقاش حول هذا الموضوع؛ للخروج بتصورات شاملة؛ لبلوغ الأهداف المرجوة.

والله ولى التوفيق

❖❖❖

(١) سورة الرعد : آية ١١ .

obeikandl.com